مرزاق بقطاش

رقصة في الهواء الطلق

رواية

دار الآداب

مرزاق بقطاش

رقصة في الهواء الطلق

رواية

دار الآداب ـ بيروت

رقصة في الهواء الطلق
مرزاق بقطاش/ روائي جزائري
الطبعة الأولى عام 2011
ISBN 978-9953-89-179-8
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
rana.adab@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

الجريمة

٢ ـ الدفتر ٣ وأرادوا به كيدًا . .

هي جريمة ارتُكبت في قلب حديقة عامّة ذات ليل عاصف، ولم تُكتشف جثّة القتيل إلّا صبيحة اليوم التالي. عزيف الرّيح العاتية غطّى على وقع الأمطار الطوفانيّة. وظلّت أرباض الحديقة موحشة، مع أنّها في العادة موئل لبعض من لا سكن لهم ولا مأوى. زعم العارفون بتاريخ المدينة أنّها لم تشهد عاصفة هوجاء في مثل شدّتها منذ عام ١٩٣٠. يومها طغى البحر، وارتفعت أمواجه مقدار خمسة عشر مترًا، لتقفز فوق الشارع المطلّ على الميناء العتيق.

ومع غبش الفجر، بدأ بعض الفضوليّين من سكّان العمارات المجاورة يتوافدون على مدخل الحديقة، وهم ما يزالون تحت وطأة النعاس، وتبادلوا فيما بينهم نظرات من فاتتهم حقيقة الحقائق كلّها، متسائلين عن موعد ارتكاب الجريمة.

وما أسرع ما حسم البعض منهم الأمر، مؤكّدين أنْ لا حاجة إلى التخمين بشأن ما حدث، ولا ضرورة البتّة للتخويض في

مسالك التحقيق الملتوية. تراشقوا فيما بينهم ابتسامات فيها الكثير من الخبث، مدلّلين بذلك على أنّهم يعرفون كيفيّة تحريك البيادق فوق رقعة الشطرنج، تبعًا لتقلّبات السياسة في البلاد، وهم يقصدون من وراء ذلك أنّ الجريمة تحمل بصمات القتلة. ألم يتردّد في كلّ مكان أنّ الإرهابيّين قادرون على بلوغ أيّ هدف، في أيّ وقت وفي أيّ مكان؟ دفتر الشروط مُعَدّ سلفًا، كما يقول التجّار، ومن الطبيعي أن يدوّن فيه أصحاب هذا الرأي جميع أنواع الجرائم، وأن ينسبوها إلى من ارتكبها وإلى من لم يرتكبها.

وقال البعض الآخر من المداهنين إنّ هناك ألف سبب للشكّ في أسباب هذه التهمة التي خرجت رأسًا من مطحنة الشيطان نفسه. وهم، وإن اعترفوا بأنّ المدينة الكبيرة عشّش فيها الإرهابيّون وباضوا فيها وفرّخوا، يعلنون أنّه لا ينبغي تسييس الجريمة بمثل هذه السرعة، وتوجيه أصابع الاتّهام إلى مجرم معيّن سلفًا. بل إنّ هذه التهمة، حسب رأيهم، تنبعث منها رائحة الكبريت. ولِمَ لا تكون وراءها دواع أخرى كالغيرة والحسد أو بعض الحسابات الرخيصة الدنيئة؟ وكان أن تواصل الأخذ والردّ بين هؤلاء جميعًا دون أن يعرف الواحد منهم هويّة القتيل.

* * *

ما إن انسحب الظلام حتى كان الطوق الأمني قد ضُرب بإحكام حول الحديقة وما جاورها. وتوزّع هنا وهناك شبّان زرق الثياب، يتمنطق البعض منهم مسدّسات، ويحمل بعضهم الآخر رشّاشات كلاشنكوف. تقاطيع وجوههم تدلّ على أنّ كلّ واحد منهم ينطوي على عزيمة راسخة لتلبية الأوامر، أيًّا كان نوعها. ثم توقّفت عند مدخل الحديقة سيّارة إسعاف خرساء بكماء، فلم ينتبه لها الفضوليّون، وانزلقت نحو الداخل وعلى متنها ما يُفترض فيه أنّه طبيب شرعي، بالإضافة إلى اثنين من مساعديه. جرى كلّ شيء على وجه السرعة، إذ لم تؤخذ بصمات، ولا التُقطت أيّ عيّنة من العيّنات لتصنيفها وتحليلها في المختبر. من يا ترى يريد أن تستقرّ في أذهان الناس فكرة واحدة، وهي أنّ المتسبّبين في الجريمة لا يمكن أن يكونوا إلّا من أصحاب اللحى الأفغانيّة؟

وجاءت مصالح الأنواء لتدسّ أنفها في الموضوع. وقف عند بوّابة الحديقة محقّقون علميّون لم يستطيعوا دخولها إلّا بصعوبة.

وتردّد بين المتجمهرين أنّهم جاؤوا لمعاينة آثار الصاعقة التي انهالت قُبيل الفجر على شجرة الدردار العملاقة، فأحرقت جزءًا كبيرًا منها. أكّد بعض سكّان الجوار أنّهم تابعوا من شققهم الاضطرابات الجوّيّة ثانية بثانية، ورأوا كيف لفحت الصاعقة بنارها الخاطفة شجرة الدردار لبضعة أعشار من الثانية، ثم همدت وكأنّها زائر جهنّمي غريب لا يخضع لأيّ منطق. وسخر رجال الأمن من أولئك المحقّقين، أصحاب المآزر البيضاء، إذ ليس من المنطقي في نظرهم أن يضيّع الإنسان وقته في التخمين والجدل حول آثار الخطّ الناري الداحر. أجمعوا فيما بينهم على أنّ الصاعقة ليس لديها ما تفعله بقطعة من خضرة التهمت نفسها بنفسها، في قلب مدينة أسلمت نفسها لطغيان الإسمنت المسلّح.

عثر مفتّش الشرطة الذي وفد متأخّرًا على ثلاثة خطوط متتابعة من الدم المتجمّد. ودار حول نفسه في المكان عينه، محاولاً التدليل على أنّ الجريمة لم تُرتكب عند مدخل الشاليه العتيق حيث توضع أدوات التنظيف. وزاد فقال إنّ جثّة الضحيّة سُحبت إلى هذا المكان سحبًا في قلب الليل عندما اشتدّت العاصفة. ثم تبادل بعض الكلمات مع الطبيب الشرعي. وما أسرع ما أدرك أنّه ارتكب خطأ تكتيكيًّا جسيمًا، فانسحب في صمت. وعندئذ، وضع الطبيب سبّابته اليمنى على رأس القتيل لكي يعاين أثر الرصاصة. هناك دم متخثّر في أعلى الصدغ الأيمن. هو دم ضارب إلى السواد في المحيط الذي ولجت منه الرصاصة. بقي مساعداه واقفين على

مبعدة أمتار منه. لكأنّما تلقّيا أمرًا بذلك. ثم سرت وشوشة بين المتجمهرين، وسرعان ما رفع أحدهم صوته جازمًا بأنّ كلًّا من الطبيب ومساعديه عسكريّون في المقام الأوّل، وعليه، فإنّ النهاية لا يمكنها أن تختلف عن البداية.

باب الشاليه مُحْكم الإغلاق، والفتى إبراهيم المكلّف بالسهر على نظافة الحديقة لم يصل بعد. حيل بينه وبين الالتحاق بمقرّ عمله، مثل غيره من الأعوان الآخرين. على باب الشاليه تستقرّ أنظار مستفسرة، ويصير محلّ غربلة حقيقيّة، ولكن دون أن يصدر أيّ تعليق بشأنه.

القتيل، على ما يبدو، لم يلفظ أنفاسه الأخيرة في هذه الحديقة. لكن، لماذا في هذه الحديقة بالذات وليس في بقعة أخرى؟

وجّه الطبيب الشرعي ما يشبه أمرًا مشفّرًا إلى مساعديه، وما أسرع ما وجد جسد الضحيّة مكانه داخل سيّارة الإسعاف، بعد تغطية الوجه بإزار خفيف. ولم ترسل سيّارة الإسعاف صفيرها المعتاد وهي تغادر الحديقة.

سيناريو هذه الجريمة مكتوب كتابة جيّدة، بل إنّ التقطيع التقني سبق أن حدّده جمع من المردة الشياطين، المختفين في مكان ما من المدينة البحريّة الكبيرة. وبدا أنّ المقطع الأخير من هذه الحكاية يوشك على الانتهاء عند هذه النقطة بالذات. وفي هذه اللحظة،

حلّ بالحديقة حميد، المسؤول عن الوضع الأمني فيها. شابّ أنيق الهندام، في الثلاثين من العمر، ذو عينين لا تثبتان على لون واحد. هيئته عسكريّة، على الرّغم من أنّه بالزيّ المدني. وجّه سؤالاً آمرًا للجميع: ولم لا تفتحون باب الشاليه؟ قد يكون بداخله ما يكشف عن خفايا هذه الجريمة!

* * *

من عادة إبراهيم أن يتفادى الوصول متأخّرًا إلى مكان عمله. أمضى وقتًا طويلاً من ليلته، وهو يدعك ساقه اليسرى على سبيل بعث بعض الدفء فيها، وتناول قرصين من الأسبرين. وحتى وهو يدلف إلى الحديقة، لم يشعر بالحاجة إلى معرفة هويّة القتيل، على الرّغم من أنّه على علاقة وطيدة ببعض المتجمهرين عند مدخلها. الشيء الوحيد الذي شغل باله هو كيف يواجه انتقادات واستفزازات حميد، المسؤول عن الأمن فيها. هل يتعلّل ويصف له الألم الذي يشتدّ بساقه كلّما ازدادت وطأة البرد عليه؟ وهل من فائدة تُرجى من هذا المتعنّت؟ أجهد نفسه حتى تكون خطواته متّزنة على أرضيّة الحديقة، لكنّ ساقه اليسرى خانته على جاري عادتها. تمنّى لحظتها أن لو حمل عصًا ليتوكّأ عليها، حتى وإن استقرّت عليه أنظار الفضوليّين من الجيران والأصدقاء. لقد اجتهد دائمًا وأبدًا لكي لا يخيّب ظنّ والده فيه، ولذلك احترم مواقيت العمل. الشغل الذي يقوم به في الحديقة يعود الفضل فيه إلى بعض أصدقاء والده.

فبعد الحادث الذي وقع له في أثناء الخدمة العسكريّة، توسّط له والده مرارًا وتكرارًا لدى بعض ذوي النفوذ، لكي يتكرّموا عليه بمنصب عمل يناسب وضعه الصحّي.

عذر إبراهيم مقبول إلى حدّ ما، فلقد تعيّن عليه أن يقدّم العون لصديق والده الحميم. أمضى معه ما يقارب ساعة كاملة في سحب قاربه، وربطه إلى جانب الزوارق الترفيهيّة التي لم تسلم من سطوة الأمواج والريح طيلة الليل. تلاعبت الزوبعة البحريّة بالقارب، وقذفت به صوب الرصيف الصخري فنالت من جانبيه معًا. وجاء صديق والده الحميم مهرولاً في الصباح الباكر، طالبًا العون من أجل تفريغ بطن القارب من الماء الذي طغى عليه، وربطه بإحكام إلى إحدى العرصات الصخريّة.

استدار إبراهيم في منتصف الحديقة ليحدّق في بعض الفضوليّين عند المدخل. ما الذي يفعلونه في مثل هذا الجوّ العبوس البارد؟ لم يعرف شيئًا عن الحزام الأمني الذي تمّ تفكيكه بمجرّد ذهاب سيّارة الإسعاف. بل إنّ فريق الخبراء في الطقس والأنواء طوى حوائجه بعد التقاط عيّنات من شجرة الدردار العملاقة. ما عادت هناك أيّ ضرورة للقيام بتحقيق في المكان، لا من جانب أهل العلم، ولا من جانب أهل السياسة ومن يدور في فلكها.

وبدأ إبراهيم في تنفيذ برنامجه اليومي على جاري عادته، فدار حول الحوض الصغير، ولفت انتباهه أنّ السمكات بهت لونها

الأحمر بعد الليلة الهوجاء، وعزا ذلك إلى أنّها قد تكون طَعَنت في السنّ، وما عادت تحتمل سطوة البرد بدورها. وانتظر بضع ثوان لكي يراها وهي ترفع خياشيمها لالتقاط فتات الخبز. هو يعرفها واحدة واحدة منذ عهد الصبا الأوّل. ثم أرسل نظرة خاطفة، فيها الكثير من الاشمئزاز، صوب تمثال شائه يمثّل أحد حمّالي الأرصفة في الميناء، ثم نحو هيكل ضخم من الحجر المقدود يُفترض فيه أن يمثّل أموات الحرب العالميّة الأولى. منذ بداية عمله في الحديقة وهو يردّد جهرة: هذا تمثال فقد وظيفته الأساسيّة الأولى، منذ أن أقدم نحّات لا موهبة له على إعادة تشكيل بعض جوانبه ونقشها. غير أنّه لاحظ بمرارة شديدة أنّ شجرة الدردار الباسقة التي تتصدّر قلب الحديقة تشوّهت هي الأخرى، بعد أن استقرّ بعض السواد الفاحم في الجزء العلوي منها. هو يعرف أنّ هذه الشجرة كانت مهدّدة بالموت، بعد أن نيّفت على المائة عام. قال ببعض الحسرة: ها قد سنحت الفرصة لكي يفعل حميد ما يريده في هذه الحديقة! ما إن نطق بهذه الجملة حتى أبصر به قادمًا نحوه، وقد شمخ بأنفه، وتعمّد رسم دلائل المكر على وجهه.

حيّاه إبراهيم مكرهًا، كعادته في كلّ يوم، لكنّه لم يعتذر عن وصوله متأخّرًا إلى عمله. إذا كان هناك من حسابات ينبغي تقديمها في هذا الشأن، فإنّ القَيّم على الشؤون الإداريّة أولى بذلك. حميد، هذا الملعون ما انفكّ يطارده في كلّ صغيرة وكبيرة منذ أكثر من عامين، أي منذ أن ذهب لتأدية الخدمة العسكريّة. وساوره الشكّ حين سأله حميد: ثم ماذا؟ هل تتصنّع البراءة؟ غير أنّه حزم

أمره وقال ساخرًا منه: أتعرف ما يقوله الإنجليز؟ يمكنك أن تخرج القرد من الغابة، ولكن، يستحيل عليك أن تخرج الغابة من مخّ القرد. وزمّ حميد شفتيه بعد أن أدرك أنّ إبراهيم سارع إلى تحديد موقع المعركة قبله، وأنّى له بمجابهة إنسان ذكي يحمل شهادة الليسانس في الرياضيّات؟

* * *

هل هو شاليه أم كوخ؟

الحقيقة هي أنّه فقد هويّته الأصليّة. لعلّه كان شاليه قبل ستّين عامًا، غير أنّ الزمن فعل فعلته فيه. صار سقفه رماديًّا بفعل الأمطار التي تعاورته، والرطوبة والقشّ المتراكم عليه على مدار العام. واجهته لم تعرف الطلاء ولا التلميع منذ زمن بعيد. العرصات الخشبيّة التي يستند إليها المدخل هي التي ظلّت بحال جيّدة.

انتصب حميد بين إبراهيم وباب الشاليه وقال له: ليس من حقّك أن تفتح الباب، ولا يمكنك استخراج أدوات التنظيف. كلّ ذلك دون أن يعرف إبراهيم خلفيّات المنع. لم يطرح أيّ استفسار، إذ من عادة حميد أن يستفزّه في كلّ وقت، ودونما سبب ظاهر. هل هو مفصول عن العمل؟

وجّه حميد سبّابته إليه، وكأنّه يلقي عليه تهمة من التهم الثقيلة: يتعيّن عليك أن تنتظر مدير الحديقة لكي تفتح باب الشاليه. وأمام

دهشة إبراهيم، أضاف حميد قائلاً: أعتقد أنّك ما تزال أحمق، غبيًّا. أنت لم تتغيّر قيد أنملة منذ أن كنت مسؤولاً عنك في أثناء تأديتك الخدمة العسكريّة!

يا له من يوم منحوس حقًّا! عاصفة هوجاء من جهة، وجريمة غامضة من جهة أخرى. ما الذي ارتكبته المدينة الكبيرة حتى تصير فريسة لكلّ من هبّ ودبّ؟ جلس إبراهيم عند مدخل الشاليه وتلاعبت أصابعه بالمفتاح. الجلسة غير مريحة ولكن لا بدّ منها، إذ إنّه يشعر ببعض الوخز في عظمة الساق اليسرى، على الرّغم من الأقراص المهدّئة التي تناولها.

سرّح أنظاره في أرجاء الحديقة، فأدرك أنّ هناك عملاً كبيرًا ينتظره. زوبعة الليلة الفائتة خلّفت أضرارًا كبيرة. القشّ يطفو على سطح الحوض، ثم إنّه، بعد أن حدّق مليًّا في الحوض، لاحظ أنّ بعض السمكات الحمراء لقيت مصرعها. عليه أن ينقّيه سنتمترًا سنتمترًا لكي يستطيع تغذية ما بقي من السمكات على قيد الحياة. هناك أغصان كثيرة متناثرة في ممرّات الحديقة، وعليه أن يسحبها جانبًا على وجه السرعة. لكن، هل يتمرّد على قرار المنع الذي أصدره غريمه حميد في حقّه؟ تمثال الأموات، وتمثال حمّال الأرصفة، والنقش البارز عند مدخل الحديقة، هذه الأشياء في مقدورها أن تنتظر. دفقة قويّة من المياه وينتهي الأمر مع تمثال الأموات، غير أنّ تمثال حمّال الأرصفة كتلة من البرونز السميك الذي نَصَلَ لونه، وتبقّع بالطحالب الخضراء وبفضلات الطيور

البحريّة التي تجيء كلّ يوم لكي تأخذ قسطها من الراحة فوق رأسه. فما العمل معه؟

مطر شديد البرودة يعاود الهطول. لسعاته تقلق إبراهيم، فيبادر إلى اتّخاذ مكان له تحت إفريز الشاليه، غير أنّ حميد لا يريد الابتعاد عن المكان أيًّا كانت الذريعة. لكأنّما وجد ضالّته فيه. إبراهيم يمتنع عن الاستفسار منه عن سبب منعه من الدخول إلى الشاليه لاستخراج أدوات التنظيف. لن يقوم بأيّ عمل في الحديقة نهار اليوم، لا لأنّ السماء تمطر، بل لأنّ الشعور يخالجه بأنّ حميدًا يبيّت فكرة شيطانيّة في دماغه للنيل منه. وها هو يردّد في نفسه: أسأل الله ألّا أفقد توازني في يوم من الأيّام. قد أقلب الدنيا رأسًا على عقب، وأكيل لهذا المتنفّج علقة ساخنة. ثم يسكت عنه غضبه، ويتساءل: وهل، يا تراني، أقدر على إتيان مثل هذا الصنيع؟

ينقل إبراهيم ناظريه من شجرة الدردار التي احترق جانبها العلوي، ثم يعرّج على حوض الأسماك الحمراء، ويتنهّد بعدها وهو يحرّك ساقه اليسرى يائسًا. كلّا، ساقه اليسرى لن تطاوعه. لكم يسيطر عليه الإحساس بأنّه إنسان قاصر جسديًّا، وقد يصير، في يوم من الأيّام، عالة على والده وعلى أصدقائه القليلين! يفرك يديه، ويلعن اليوم الذي تلقّى فيه الأمر بالتوجّه إلى الثكنة لتأدية الخدمة العسكريّة. يتنهّد قائلاً: عام كامل في ثكناتهم، وعدت في آخر المطاف أجرجر ساقي اليسرى! أثناء غيبته، انتقلت والدته إلى

رحمة الله. يقنع نفسه بأنّه من الأفضل ألّا يعمل على تحريك الماضي. وما أسرع ما يصرف بأسنانه: قد أتناول عندها أيّ أداة حادّة، وأهشّم بها رأس هذا الملعون الذي يتبعني مثل ظلّي، ويريد منافستي حتى في الأمور الحميميّة.

تقع الحديقة العتيقة فوق ربوة صغيرة في قلب المدينة. هي شديدة الخضرة، على الرّغم من أنّ أشجارها شاخت. وإبراهيم لا يكاد يميّز منها سوى النخل والصنوبر، أمّا الأشجار الأخرى فإنّه لا يعرف أسماءها. أجيال وأجيال تزاحمت على مختلف ممرّات هذه الحديقة: تلاميذ وشيوخ وفتيان وفنّانون وعشّاق ونساء محجّبات وسافرات ومناضلون سياسيّون من مختلف المشارب، بل وإرهابيّون ملتحون عملوا دون شكّ على تحضير جرائمهم في مكان ما منها.

إلى يمين الجهة السفليّة، تقع العين على جزء من الميناء، وعلى بعض السفن الراسية في الداخل، وخارج الرصيف الرئيسي. أمّا إلى اليسار، فتظهر الأميراليّة والمكان الذي تلجأ إليه الزوارق الترفيهيّة إذا ما هاج البحر وهدّد بابتلاعها. وتتصدّر هذا المشهد الجميل منارة نيّفت على خمسمائة عام. إبراهيم يعرف هذه المنارة حقّ المعرفة. ساعد والده مرّات عديدة في تنظيفها وتلميع قطعها النحاسيّة.

استدعاه مدير الحديقة إلى مكتبه، فشعر على التوّ أنّه تحوّل من عامل بسيط إلى شخص ذي أهمّيّة في دقائق معدودات. في المكتب ثلاثة مساعدين، بالإضافة إلى حميد الذي بدا، على جاري عادته،

أنّه هو الذي يحرّك البيادق على هواه. الحقيقة هي أنّه يفعل ما يشاء في الحديقة كلّها، إذ إنّه ممثّل الأمن العسكري في هذا المكان. الأشجار، على حدّ تعبير إبراهيم، لم تسلم من أعين هذه المؤسّسة التي تتدخّل في أدقّ شؤون الناس. أمّا المدير فيستجيب له، لأنّه يعلم في قرارة نفسه أنّه قد يُطرد في أيّ وقت إن هو تجرّأ وعارضه. أراد إبراهيم أن يعتذر عن تأخّره في الوصول إلى العمل، غير أنّ المدير طمأن خاطره، مخبرًا إيّاه أنّه ليس الوحيد في قائمة المتأخّرين عن اللحاق بالعمل في تلك الصبيحة. ولم هو، يا ترى، في هذا المكتب؟

دار المدير حول مكتبه، ثم توقّف قبالة إبراهيم: أين كنت خلال الليلة الماضية؟ وأدرك إبراهيم أنّ الأمور مبيّتة، ولذلك أجاب واثقًا: كنت في داري!

تأفّف حميد على سبيل إلقاء اللوم على المدير، واستأنف بنبرة فيها الكثير من الحيلة والمكر: هل تريد أن تقنعنا بأنّك لا تعلم أنّ صديقك الضابط الكبير اغتيل البارحة في هذه الحديقة، وعلى وجه التحديد، عند مدخل الشاليه الذي ترصف فيه أدوات التنظيف؟ اعتبر إبراهيم أنّ المسألة مجرّد ممازحة من جانب حميد، لذلك أدار عينيه في الوجوه الحاضرة في المكتب. غير أنّ حميد شعر بما يشبه الإهانة، فاقترب منه ورشقه بنظرة فيها الكثير من أسباب السخرية والحقد معًا. قال له متخابثًا: صديقك الضابط اغتيل عند مدخل الشاليه! أتفهمني الآن؟

بدا على إبراهيم أنّه عائد من دنيا أخرى. بدأ يدرك وقع الخبر عليه: من قتله؟ وأين هي جثّته؟

وفي لحظة التساؤلات التي عصفت بإبراهيم، أدرك حميد أنّه أحكم جوانب السيناريو الذي وضعه، فعرض عليه الاقتراح التالي: أعتقد أنّه من المنطقي أن نذهب لكي نفتح باب الشاليه، وأن نلقي نظرة على ما بداخله! وكان أن وافق المدير بهزّة من رأسه. وانطلق الجميع نحو الشاليه بخطو يكاد يكون عسكريًّا. بدا على إبراهيم أنّه هو المتّهم الأوّل بالقتل على الرّغم منه. وجد نفسه وسط الموكب الصغير، وشعر أنّ هناك حراسة قويّة مضروبة عليه لا يقوى على الإفلات من قبضتها.

هي خطوات عسكريّة في قلب الحديقة، وحميد يتقدّم الجمع مزهوًّا بنفسه كمن هو على وشك أن يحقّق نصرًا. عيناه الزرقاوان تلتمعان، ثم تنتقلان إلى ما يشبه اللون الأخضر المائي. أمّا إبراهيم فانتابه الإحساس بأنّه محكوم عليه بالشنق، يتعثّر مرّة، ثم يحاول السير في خطّ مستقيم. عجز عن استخدام عقله من أجل فهم هذا السيناريو الغريب الذي وضعه حميد، وأبدى استعداده لتصويره في الوقت نفسه. وبدا مدير الحديقة وأعوانه وكأنّهم ممثّلون ثانويّون.

عنصر مفاجئ أُضيف إلى الديكور في هذه اللحظة بالذات، فقد حلّت في الحديقة ضاوية، صديقة إبراهيم. فتاة ذات عنق نافر، ترتدي لباسًا فيه الكثير من دلائل التهوّر، لكنّها ذات حركات ظريفة متميّزة. وقفت قبالة الموكب الغريب لتقرأ ما يحدث في المكان.

بدت على علم بأنّ جريمة ارتُكبت في الحديقة خلال الليلة الفائتة. ولكن حين وقعت أنظارها على إبراهيم وكأنّه يُساق إلى الذبح دون قدرة على الدفاع عن نفسه، سارعت إلى اعتراض الموكب. لم تر حينها أحدًا آخر إلّا إبراهيم: نهارك سعيد، يا إبراهيم، إلى أين أنت ذاهب هكذا؟ ردّ عليها حميد وقد شعّت عيناه طربًا وسعادة برؤيتها في الحديقة: نهارك سعيد، لدينا عمل صغير نقوم به معًا! حاول إبراهيم أن يتحدّث إليها لكنّ حميدًا سحبه إليه بقوّة من ساعده. حينها، اكتفت ضاوية بالسير وراء الموكب. ما كان أحد ليتجرّأ ويستفزّها بكلمة واحدة، فعمّها جنرال صاحب سطوة وجبروت!

أمام باب الشاليه، سلّم حميد المفتاح لإبراهيم قائلاً: افتح لنا باب المعجزات! واستشاطت ضاوية غضبًا فتساءلت: ما الذي يحدث ها هنا؟ لم تتلقّ أيّ جواب، فأضافت: أتراكم تتّهمون إبراهيم بجريمة من الجرائم! سأطلب عمّي على الفور.

اضطرب مدير الحديقة في وقفته، ثم تصاغر وسط الجمع وقوّس كتفيه، مدلّلاً على عجزه. من أين هبطت عليه هذه المصيبة في نهاية هذه الصبيحة؟ ولم، يا ترى، يدسّ حميد أنفه في كلّ صغيرة وكبيرة ويحول بينه وبين عمله؟ هو يعلم أنّ هناك منافسة تحتدّ كلّ يوم بين حميد وإبراهيم، من أجل الاستحواذ على قلب ضاوية، أمّا أن تقع تهمة القتل العمدي على إبراهيم، فذلك ما يزلزل الأرض تحت قدميه. ولكن، هل يقوى على قول العكس؟

شعر حميد غير ما مرّة أنّ إبراهيم يسبقه إلى الفوز بقلب ضاوية. ثم هو يعلم أنّ عمّها الجنرال قادر على أن يتسبّب له في مشاكل كبيرة في السلك العسكري. قال بصوت متخابث: ينبغي أن نستكمل التحقيق، يا آنسة، ذلك كلّ ما في الأمر. أنا مكلّف بهذا العمل.

فتح إبراهيم باب الشاليه. وكأنّما الباب أراد أن يزيد المشهد نشازًا، فأرسل صريرًا قويًّا. رائحة ماء الجافيل تطغى على المكان. أشعل النور، فتحقّق الجميع أنّ كلّ شيء عادي. المكانس والمساحب والدلاء وأنابيب الرشّ، والمماسح المعدنيّة وذوات الوبر! تفقّد حميد كلّ ما بداخل الشاليه، ولمس كلّ شيء لمسًا، ثم إنّه مال على طاولة قديمة انطرح عليها عدد من الأنابيق، وكتب الكيمياء والرياضيّات والتاريخ والفنّ والأدب. لم يسترع انتباهه أيّ شيء آخر، اللهمّ سوى دفتر ضخم موضوع على درج بالقرب من النافذة المحكمة الإغلاق. تناوله وسرعان ما دعاه إبراهيم إلى ردّه إلى مكانه. لم يجد حميد عندئذ أفضل من أن يعلّق عليه: ماذا؟ أتراك تريد عرقلة سير التحقيق؟ أكّد إبراهيم أنّ الأمر يتعلّق بدفتر مذكّرات شخصيّة لا علاقة لها البتّة بالعمل الذي يقوم به في الحديقة. أمرت الفتاة حميدًا بأن يعيد إليه الدفتر، لكنّه ترجّاها ألّا تتدخّل في أمور أمنيّة فوق طاقتها. وسرعان ما غادرت الشاليه وهي تقول بنبرة تهديد: أنت لا تحبّ سوى التخويض في المياه العكرة!

الدفتر ضخم، وهو في الحقيقة مخصّص لتسجيل الأمور

التجاريّة. لكنّه بدا بين يدي حميد وكأنّه مخطوط أحد علماء القرون الماضية. خدوش عديدة تتقاطع غلافه الأسود المصنوع من الورق المقوّى. رفع حميد الدفتر على سبيل تقدير وزنه، وقال وهو ينظر صوب إبراهيم: سنرى ما بداخل هذا الدفتر العجيب!

قال له إبراهيم بكلّ هدوء ورزانة: ضميري مرتاح وهو لا يؤاخذني على أيّ شيء. وإذا كانت جريمة قد ارتُكبت في الحديقة، فإنّني أبعد ما أكون عن المجرم! والحقيقة هي أنّه لم يتحمّل وقاحة حميد، لذلك خاطب مدير الحديقة: هل أنت المسؤول حقًّا في هذا المكان؟ وشعر المدير بالعجز مرّة ثانية فلم يردّ عليه.

لِمَ هذا التكالب على إبراهيم؟ ذلك ما أراد المدير الاستفسار عنه وهو يلقي نظرة جانبيّة على حميد. كاد يصرخ في وجهه: إبراهيم بريء. سنوات ضوئيّة تفصله عن الجريمة التي تريد إلصاقها به! لكنّ الغيرة التي تتأكّل صدر حميد كثيرًا ما تحول بينه وبين التبصّر في الأمور، على الرّغم من أنّه شديد الذكاء. هو ماض في السباق بينه وبين إبراهيم من أجل الفوز بقلب ضاوية. ولو استطاع أن يلقي بإبراهيم من جبل شاهق لما تردّد لحظة واحدة.

إبراهيم يحمل شهادة الليسانس في الرياضيّات، وتلك حقيقة يعرفها حميد معرفة جيّدة، ولا يقوى على مواجهته في هذا الميدان. الأوراق الأولى من دفتره الضخم تحمل بعض التعريفات الكيمائيّة والمعادلات الرياضيّة. حين يستبدّ الألم بساقه اليسرى،

يتصايح قائلاً: أنا غير محظوظ في هذا البلد الذي لا يضبطه ميزان ولا قانون، هذا البلد الذي جعل منّي مجرّد عون بسيط يقوم بتنظيف هذه الحديقة العامة! انتظر أن يشرع حميد في تصفّح الدفتر الضخم، وفي قراءة بعض المقاطع من مذكّراته قبل أن يعيده إليه، لكنّه أُصيب بالدهشة وهو يراه يضعه تحت إبطه. لكأنّما هو ينوي بذلك فحصه وتحليله في أحد المخابر. حرّك إبراهيم رأسه على جاري عادته حين تواجهه غرابة من الغرابات، وقال بصوت واضح أزعج غريمه: أنت جاهل، مغرق في جهلك. أوتراك تريد أن تتطاول عليّ؟

قال حميد مباهيًا بعلاقاته: سأتّصل على التوّ بالمسؤولين العسكريّين السامين، لكي ينظروا في الأمر! وفي مكتب مدير الحديقة، جرت المكالمة الهاتفيّة دون حضور إبراهيم بطبيعة الحال! ما الذي قيل في الأماكن العليا، يا ترى؟ لا أحد استطاع أن يعرف ما جرى من أمور. هي تخمينات، وليست سوى تخمينات. التآمر على مصلحة هذا البلد يتمّ في مكاتب مخفيّة، بعيدة عن الأنظار، وبكلّ هدوء وأمان.

العجز مؤلم حقًّا، بل هو داء قتّال، سواء أكان نفسيًّا أم جسديًّا. دخل إبراهيم الشاليه فجاءه المدير لطمأنته على انفراد. أمّا ضاوية فإنّها لم تبق مكتوفة اليدين، بل سعت السعي كلّه لكي يتدخّل عمّها بنفسه ويساعد إبراهيم، خاصّة أنّه تردّد في كلّ مكان أنّه يوشك أن يصاهر الجنرال. ينبغي انتهاز هذه الفرصة. عليه أن

يقطع جناحي ذلك المخبر المعتدّ بنفسه، أن يلقمه حجرًا. وعلى الرّغم من أنّ مدير الحديقة متواطئ في العديد من الأمور، إلّا أنّ الفرصة ستؤاتيه لكي يتخلّص من قبضة حميد في كلّ ما يتعلّق بشؤونه. لا يكاد يبادر إلى القيام بشيء إلّا واعترض سبيله. لكن، هل إبراهيم بريء حقًّا ممّا يراد إلصاقه به؟ أليس له ما يؤاخذ نفسه عليه؟ لم يسبق للمدير أن سجّل عليه مخالفة واحدة، منذ أن وظّفه في الحديقة كعامل تنظيف. وها هو الآن يفرك يديه غضبًا ودهشة. قضيّة إبراهيم فريدة من نوعها، سواء في هذه الحديقة أو في المدينة كلّها. إنّه يحمل شهادة أعلى من شهادته هو. نال شهادة الليسانس في الرياضيّات، ولمّا لم يجد عملاً يناسبه، انتهى به الأمر إلى أن يقبل وظيفة عامل تنظيف. غير أنّ مشكلته الأولى والأخيرة هي أنّه مبعد من الخدمة الوطنيّة لأنّه لم يعد صالحًا لها. كان على الجهات العسكريّة أن تقوم بشؤونه وتتكفّل به. لا شكّ في أنّ هناك شيئًا ما في غير محلّه! وإبراهيم يعترف أنّه أصدر انتقادات حادّة ضدّ النظام العسكري. ومع ذلك انتهى الأمر بمدير الحديقة إلى أن يقول في ذات نفسه: سيعمل صهره القادم على إنقاذه. بل إنّه سيجد له وضعيّة مريحة وملائمة. لا يمكن في هذا البلد أن يتحالف إنسان مع جنرال ويعيش عيشة المنبوذين!

أسرعت ضاوية في العودة إلى الحديقة بعد أن قيل لها إنّ الجنرال مشغول في القيادة العامّة. حميد يرقص الآن طربًا وهو يتتبّع حركاتها عن بعد. مخطّطه، إن كان له مخطّط حقًّا، محكم جيّدًا. سيبلغ مراده بكلّ سهولة. لا شيء يشير إلى أنّ هناك عملاً

شيطانيًّا يُحاك في صدره. وها هي ضاوية تدخل الشاليه، وتقول لإبراهيم بطريقة من فشل في تأدية مهمّته: عمّي يحضر الآن اجتماعًا في مكان ما من المدينة الكبيرة.

وضع حميد الدفتر تحت إبطه وضغط عليه بقوّة، ودخل الشاليه مستفزًّا ضاوية: آه، لقد عدت، يا آنسة! وأجال نظره في أدوات التنظيف قائلاً: ينبغي تنظيف الحديقة! وخرج، وقد بدا عليه أنّه يوشك على الذهاب لكي يحني رأسه في جهة أخرى، بعد أن ذهب الظنّ به إلى أنّه سيبلغ مراده.

عندها قال إبراهيم لضاوية بصوت هادئ: الأمر الذي يحزنني حقًّا هو أنّني قلت الحقيقة، كلّ الحقيقة في مذكّراتي! أجل، كتبتها دفعة واحدة. ولم يبد على ضاوية أنّها فهمت شيئًا ممّا قاله. وشدّد اللهجة على حزنه، مضيفًا بصوت لا يعروه أيّ تردّد: عمّك نفسه موجود في المذكّرات التي سجّلتها في الدفتر! هذه المرّة، أمسكت ضاوية بساعده على سبيل التشجيع وقالت له: أعرف ما تفكّر فيه حيال عمّي. ليس لك ما تقلق بخصوصه. ودارت دورة صغيرة حول نفسها، وأضافت: أنا بنت أخيه، ومهما يكن رأيك فيه، فإنّني أشاطرك إيّاه.

هي كلمات مطمئنة حقًّا، لكنّها لا تبعث على الارتياح. الآخرون، أي أولئك الذين يمسكون بزمام الحكم، ويسحبون الخيوط كيفما شاؤوا، لا يخيفونه أبدًا. من واجبه أن يقول رأيه فيهم جميعًا. إنّه متهالك جسديًّا، أعرج، وبدون مستقبل، ويعمل

عملاً دون مستواه بكثير، ويتقاضى راتبًا تافهًا، فما الذي يريدونه منه؟ لقد أعطى كلّ شيء، سلّم كلّ شيء دفعة واحدة. فلماذا يتردّد في قول الحقيقة؟

طلبت منه ضاوية أن يغلق الشاليه نكاية في حميد: أدعوك إلى تناول الفطور معي في مكان ما من المدينة، ريثما ينهي عمّي اجتماعه مع الصعاليك الآخرين! وانفجرت ضاحكة.

* * *

في اليوم التالي، اكتفت الصحافة المهووسة بتتبّع الخوارق السياسيّة بنشر أسطر قليلة عن الجريمة. لكنّها لم تتحدّث عن القتيل لأنّها لم تصل إلى تحديد هويّته. كلّ ما هو خاضع للرقابة العامّة أو للرقابة الذاتيّة يؤدّي تلقائيًّا إلى تأويلات مبهمة لا تفضي إلى الحقيقة. هي على أيّة حال تأويلات تمسّ جوهر الحدث نفسه في الوقت ذاته، إذ ليس هناك دخان بدون نار.

لو كان هناك محلّلون سياسيّون في المكان عينه، أو حتى قرّاء طالع، لخرجوا عن الطوق، ولقالوا إنّ هذه الكذبة الصارخة من شأنها أن تحدث شروخًا وأخاديد في صفحة السماء المتجهّمة. قيل على سبيل السخرية من رجال الأمن إنّ الرصاصة انطلقت في اتّجاه معيّن، ثم اتّخذت وجهة معارضة! المقهورون في هذا البلد، وما أكثرهم! يلفّون حول المعاني لفًّا في كلّ يوم، وقد يحدث أن يشعلوا الفتيل بين الحين والآخر. ولكنّهم في هذه المرّة صامتون، مكتفون ببعض الكلمات والإشارات. وقد يعود ذلك إلى أنّهم

أدركوا أنّ ممارسة السياسة في هذه المدينة مقصورة على من يمتلكون الحديد والنار والمال. وها هم اليوم ينتظرون ما تجيء به الأيّام حتى وإن سبق لهم أن عرفوا الكثير ممّا يُراد بهم.

لكنّ النار هي النار. لهيبها لا ينطفئ، ولا يمكن إحداث أيّ تغيير في تركيبتها. في المقاهي، وفي الإدارات العامّة وفي الأسواق، بل وفي المدارس نفسها، ردّد الناس بأصوات خافتة مرتعبة مرّة، وبأصوات جهيرة مدوّية مرّة أخرى: ضابط كبير وُجد مقتولاً في حديقة عامّة! يا لهول ما نطقوا به! ثم جاءت بقيّة الحقيقة بعد وقت في شكل تساؤلات وحركات، لكي تنتهي بهزّات من الرؤوس، أو بحواجب مقطّبة وشفاه مزمومة. وحدث بعدها ما يشبه الإجماع بشأن الجريمة؛ فقيل بصورة قاطعة إنّ هناك حسابات وحسابات طويلة وراءها. لقي الضابط الكبير مصرعه حقًّا وصدقًا لأنّه فعل كذا وكذا، دون موافقة من رفاقه الآخرين. وتمادى البعض في تصريحاتهم معلنين أنّ هناك مبدأً عامًّا تسير السلطة بموجبه في هذا البلد: لا يمكن مغادرة دوائرها دون دفع التكاليف! ألم يقل هواري بومدين لأحد رفاقه بعد انقلاب ١٩ جوان ١٩٦٥: جئنا معًا، وسنغادر المكان معًا!

* * *

أظهرت النشرة الإخباريّة التلفزيونيّة المسؤول الأوّل عن الدولة، وهو يشرف بنفسه على وضع جثمان رفيقه الضابط داخل الحفرة. بقي واقفًا بضع دقائق قبالة القبر، واضعًا كلتا يديه على بطنه بطريقة تدلّ على عجزه وحزنه معًا. ثم نفض التراب عن يديه على غرار ما فعله مع عدد من رفاقه الشهداء في أثناء الحرب التحريريّة، وغادر المقبرة مطأطئًا رأسه. ما كان يعلم شيئًا عن أسباب تلك الجريمة. وأنّى له أن يعرف خباياها، ما دام كلّ شيء منفلتًا في محيطه، لا يضبطه أيّ قيد ولا يخضع لأيّ معيار؟

في الفترة الأخيرة، أثار غضب الناس في كلّ مكان بسبب برودته. وتردّد بينهم أنّه يتعيّن عليه أن يمسك بزمام المبادرة، وينقّي محيطه لكي يقوى على ممارسة الحكم. وشاع أيضًا أنّ حواليه عصابة من الذئاب الجائعة القادرة على الفتك بالبلد في طرفة عين، وعلى تفكيكه وبيعه قطعة قطعة، لكي تصول وتجول على هواها.

لكن، في ظرف أربع وعشرين ساعة، كانت الغلبة للمراوغة

السياسيّة، على ما جرت به العادة في مثل هذه القضايا المبهمة. فمن المستحيل أن يلقى ضابط كبير مصرعه، داخل حديقة عامّة، بمثل هذه البساطة والسذاجة، حتى وإن كان الإرهابيّون قد سيطروا على مختلف أنحاء المدينة البحريّة. كلّا، ليس هناك في هذه الجريمة ما يُشير إلى أنّها من فعل فاعل واحد، لا، ولا هي جريمة سببها أخلاقي، مثلما أُشيع عن وزير الخارجيّة الأسبق الذي اغتيل يوم ١١ أفريل من عام ١٩٦٣، عند مدخل البرلمان. هذا الضابط رجل تقي فيما قيل عنه. رآه الناس مرّات عديدة في المساجد يؤدّي صلاة الجمعة. من المستحيل أن تكون له علاقة غراميّة مشبوهة، أو شيء من هذا القبيل!

وفي ظرف أربع وعشرين ساعة أيضًا، حدثت قفزة تكتيكيّة سريعة في أوساط أولئك الذين دفعوا الناس إلى الظنّ بأنّ الجريمة ارتكبها إسلامويّون ملتحون. وكان أن جمعوا أمرهم ونادوا بضرورة وضع اليد على مرتكبها، ذلك لأنّ الأمر يتعلّق بشرف العسكر، وبعض أشباه السياسيّين الذين كثيرًا ما يسارعون إلى الضغط على الزناد.

* * *

دخول المقبرة محرّم على كلّ من هبّ ودبّ في المدينة الكبيرة. المنافذ إليها مسدودة، ورجال الشرطة وأعوان الأمن والعساكر في كلّ منعطف وزقاق. أمضى جثمان الضابط الكبير ليلتين في مصلحة التبريد، ولم يغادرها إلى داره إلّا صبيحة الدفن، لكي يقضي بها بضع ساعات. توافد بعض الصحافيّين الأجانب على مسكنه، لكن، لم يُسمح لهم بالتقاط أيّ صورة. أصدقاؤه ضمن المؤسّسة العسكريّة كانوا حاضرين في صمت، يقومون بحساباتهم وتخميناتهم العجيبة. الموت العنيف الذي كان من نصيب زميلهم ترك العديد من الأبواب مفتوحة على مصاريعها.

قام إبراهيم بدورة في الحيّ الذي سكنه الضابط، لكنّه لم يقترب من الڤيلّا. كيف تستطيع نغمة نشاز مثله أن تجد مكانًا لها في هذه الأوركسترا الغريبة، المصنوعة على مقاس أصدقاء الضابط وأعيان النظام؟ أرملته لا تعرف إبراهيم معرفة شخصيّة، لكنّ زوجها حدّثها عنه. وعليه، ليس له أن يقترب أكثر من الڤيلّا.

تمكّن من بلوغ المقبرة والتسرّب إليها مع غيره من المتطفّلين، على الرّغم من الحزام الأمني المضروب حولها. ثم ماذا، حتى المقبرة ممنوعة علينا؟ كرّرها بمرارة وهو يتأمّل كلّ ما يحيط به!

رئيس الدولة نفسه الذي يُعدّ صديقًا حميمًا للضابط القتيل حلّ بالمقبرة، يسبقه جيش عرمرم من الحرّاس. جاء بالزيّ المدني، في حين أنّه كان من واجبه مبدئيًّا أن يرتدي الزيّ العسكري بهذه المناسبة. كان أوّل واحد ألقى حفنة من التراب صوب القبر المفتوح. مسح يديه بسرعة بعد ذلك، وسمّر عينيه في القبر، وهو ينغلق شيئًا فشيئًا كلّما انهال عليه التراب. فيم تراه يفكّر؟ خلص إبراهيم إلى القول إنّ رئيس الدولة ما كانت له فكرة محدّدة عن الجريمة، اللهمّ سوى أنّه يسيّر دفّة سفينة تتسرّب إليها المياه من كلّ جهة، وهي على وشك الجنوح نحو صخور لن ترحمها أبدًا.

بعض رجال الأمن تابعوا إبراهيم بنظراتهم، لكن دون أن يقتربوا منه. قال في نفسه إنّها بداية الخليط الحقيقي!

ثم إنّه رأى عن بعد عمّ ضاوية. تصنّع هذا الأخير عدم رؤيته حين تقابلا وجهًا لوجه على مبعدة بضعة أمتار. آه، يا لهذه الحكاية العجيبة! جنرال بأكمله يخاف مواطنًا بسيطًا أعرج، لا يكاد يقوى حتى على القيام بحاجاته في بلد الغربان والنسور الكواسر وغيرها من الحيوانات المفترسة!

لاحظ وجود حرّاس آخرين بأزياء مدنيّة في مختلف أنحاء المقبرة. فتيان يرتدون أثوابًا سوداء، حليقو الرؤوس والوجوه،

وعلى استعداد لإشهار مسدّساتهم أمام أدنى حركة مشبوهة في المقبرة. العساكر القائمون على الحراسة يقفون بالقرب من أولئك الحرّاس. سمع واحدًا منهم يتمتم بين شفتيه: يتعيّن على كلّ واحد أن يحرس نفسه من الآن فصاعدًا! جملة عميقة المغزى. الظاهر أنّه أحد أصدقاء الضابط الذي يُوارى التراب الآن. على إبراهيم أن يتّخذ حذره. قتلة صديقه الضابط قد يهجمون عليه. ولن يجعلوا منه إلّا مجرّد لقمة بين أشداقهم.

* * *

في الحرب أو في السلم، يظلّ الميناء في غليان دائم. طوال حرب التحرير، تواترت عليه سفن تجاريّة وأخرى حربيّة، ناقلةً السلع والعساكر بين الجزائر وموانئ مرسيليا وتولون ودنكرك. عساكر ومغتربون، وحمّالو أرصفة، وصيّادون وسيّاح من مختلف الجنسيّات، وحجّاج إلى بيت الله الحرام، وغيرهم، عبروا أرصفته، أو توقّفوا في الحانات والمقاهي المجاورة. لم يظهر القلق عليهم يومًا ما، والبعض يعزو راحتهم جميعًا إلى أنّ مشهد الميناء والخليج مريح جدًّا. كان في استطاعة سكّان القصبة أنفسهم أن يذهبوا راجلين إلى أقصى نقطة من الرصيف البحري، أو نحو الصخور الشرقيّة من الأميراليّة للصلاة في جامع سيدي إبراهيم، الواقع بالقرب من المنارة. العكس هو الذي يحدث اليوم. كلّ شيء ممنوع في الميناء. يستحيل الدخول والتوجّه إلى الصخور الشرقيّة، أو الذهاب للتسكّع على الأرصفة. قرار غريب فرضه حكّام جاؤوا من كلّ جهة، ولا يعرفون شيئًا عن المدينة الكبيرة، ولا عن عاداتها ولا عن تاريخها.

إبراهيم الآن بالقرب من الأميراليّة. سبق له أن جاء إلى المكان عينه، في الصباح الباكر من اليوم الفائت، لكي يقدّم يد المساعدة لصديق والده. بذل جهدًا كبيرًا لكي يعينه على شدّ قاربه وربطه إلى المربط الحديدي الذي انفلت منه خلال الليلة المنصرمة تحت عصف الريح. وبالرّغم من الألم الشديد الذي نال من ساقه اليسرى، فإنّه لم يتلفّظ بكلمة، لا لوالده ولا لأيّ إنسان آخر. لولا صديق والده لما كان تمكّن من الدخول إلى الميناء. ساقه العرجاء لم تعجب العسكري القائم على الحراسة عند مدخل الأميراليّة. أدرك إبراهيم حينها أنّه عاجز عن التحرّك على هواه. أمضى ربع ساعة لكي يحكم شدّ القارب. والحقيقة هي أنّه كان متعوّدًا على القدوم، رفقة والده، إلى هذا الجانب من الأميراليّة. لقد ساعده دائمًا على تلميع المنارة. من حسن حظّه أنّ الصيّادين الذين يختلفون إلى هذا المكان يحبّونه منذ صباه الأوّل. أبدى المسؤول عن المنارة رغبته في توظيفه كتقني، أو شيء من هذا القبيل. لكنّه حين نظر في دفتر تسريحه من الخدمة العسكريّة تراجع، ولم يستطع أن يفعل شيئًا. إنّه عسكري يستجيب للأوامر. من سوء حظّ إبراهيم أنّه لم يستفد من أيّة مساعدة، منذ الحادثة التي تعرّض لها غرب البلاد. بل إنّ الحقد انصبّ عليه بسبب التصريحات التي تلفّظ بها على إثر الحادثة. قيل إنّه كان من واجبه أن يمسك لسانه، بدلاً من أن ينطلق في انتقادات حادّة ضدّ النظام السياسي، والعساكر الذين يقومون بتسييره.

أرباض الميناء تشهد الآن هدوءًا كاملاً بعد العاصفة العاتية.

الناس في كلّ مكان يعلّقون على هذا الحدث الطقسي الذي لم يتعوّدوا عليه. الغريب في الأمر هو أنّهم، في المقاهي، أمسكوا عن الخوض في حكاية اغتيال الضابط الكبير، وعن الطريقة الجهنّميّة التي نُقل بها جثمانه إلى الحديقة لسبب من الأسباب. يسترق إبراهيم النظر إليهم، ويرسم بسمة ساخرة على شفتيه: لو عرف روّاد المقاهي أنّني متّهم بارتكاب هذه الجريمة، لأخلوا أمكنتهم دون أن يلتفتوا إلى الوراء!

* * *

الحيرة تُلقي بأثقالها وظلالها على والده. حين عاد إلى الدار بعد الأصيل شعر بضرورة أن يُجيب على جميع أسئلته. وبالفعل، تحدّث إليه، دون أن يعير بالاً لردود أفعاله. لكن، حين أشار والده إلى علاقته ببنت أخي الجنرال، انتفض وكاد يسقط أرضًا. أن تكون الفتاة بنت أخ لجنرال أمر يزعج والده كثيرًا. هذه العلاقة في نظره لا يمكن أن تكون طبيعيّة، بل هي غير منطقيّة! إذ كيف تهتمّ مثل هذه الفتاة بفتى مثله يجرّ ساقه جرًّا؟ قال له: الحمد لله على أنّ والدتك رحلت عن هذه الدنيا!

ما عاد من الممكن أن يدخل المنارة مع والده، لكي يساعده في تلميع إطارها وزجاجها الدوّار. المسافة تتباعد بينه وبينها بمرور الزمن. يحدث له أحيانًا أن يشعر بالحزن، لكنّه لا يؤاخذ إلّا نفسه. ويردّد أمام والده، وهو يهزّ رأسه: أنا السبب، وأنا الضحيّة أيضًا. وهو يقصد من وراء ذلك إلقاء التبعة على المؤسّسة العسكريّة التي عصرته، على حدّ قوله، مثل حبّة ليمون، ثم قذفت به إلى المزبلة.

* * *

هي فرصة غير مرتقبة تسنح له الآن. عليه أن ينتهزها لكي يضع حدًّا لسلوك حميد الأرعن. ضاوية صديقته، وهي قد تصير رفيقة حياته في يوم من الأيّام. يتشجّع ويقول في نفسه هي أرضيّة انطلاق جيّدة، ثم يتراجع، كأنّ شيئًا ما يخيفه في الأفق. لا يجب أن يستخدمها لكي ينال وطره من حميد. يمنعه من ذلك احترامه الكبير لها، بل إنّه كثيرًا ما يمتنع عن الحديث عنها كلّما جاء ذكرها على ألسنة بعض أصدقائه القدامى في الحيّ، أولئك الذين لعب معهم، والذين تلقّى معهم أولى الضربات في هذه الحياة. إنّه بين نارين: نار أولئك الأصدقاء الذين يستحثّونه على انتهاز الفرصة باقتطاع وضعيّة جيّدة، ونار والده الذي ما انفكّ يدعوه إلى التخلّي عن ضاوية. البعض يقولون له مباشرة: أسباب النجاح متوفّرة بين يديك، فانتهز الفرصة، يا إبراهيم! كلمة صغيرة ويمكنك بعدها أن تصير مديرًا للحديقة العامّة على الأقلّ! غير أنّ والده يضع له سيناريوهات بالغة البساطة.

الأقرباء والأبعدون، على حدّ سواء، يجهلون أنّ عم الفتاة لا يحبّه. العلاقة بينهما فاترة، ولا يمكن تسخينها. الجنرال لا أبناء له! والأرجح أنّه لا يريد إثارة سابقة في صلب المؤسّسة العسكريّة. لكن، ينبغي الاعتراف بأنّ هذا الجنرال لم ينتقص من شأنه أبدًا، لا ولا هو أشار إلى ساقه العرجاء. إنّه عسكري روحًا ودمًا، ويكنّ الاحترام للمجموعة التي ينتمي إليها.

* * *

المنارة تكشف عن طابع هندسي عريق يعود إلى بدايات القرن السادس عشر. هي في الحقيقة قطعة من متحف في الهواء الطلق. تعديلات عديدة أُجريت عليها، لكنّها ظلّت تحتفظ بلمسات بانيها الأوّل، البحّار المقدام خير الدين. جانب صغير من الأميراليّة التي تحتضن هذه المنارة مخصّص للسفن الترفيهيّة وزوارق الصيد. النبرة النشاز الوحيدة في هذا المشهد المتناسق، حسب إبراهيم، إنّما هي العساكر الذين يتسكّعون في مختلف أماكن الأميراليّة، قبل أن يضطلعوا بأدوار المناوبة. أمّا بقيّة الديكور فهي متكاملة. فيما مضى، كان يخرج للصيد صوب عرض البحر مع صديق والده. اليوم، ساقه العرجاء لا تسمح له بالتحرّك كثيرًا. في بعض الأحيان، يستبدّ به الحزن فيبقى ساعات طويلة في داره دون أن يعمل شيئًا. حتى مطالعة أمّهات الكتب تتحوّل إلى عبء ثقيل عليه. أمّا عن مشروعه لتحضير شهادة الماجستير في الرياضيّات، فإنّه ما عاد يفكّر فيه. لقد رغب في وقت من الأوقات أن يغيّر

وجهته تغييرًا جذريًّا، وينطلق في مهنة التعليم الجامعي. صار يفكّر في هذا الأمر بعد أن ألحّت عليه ضاوية وشجّعته. هي فتاة لا تعرف معنى اليأس، وتريد أن تراه ذات يوم وهو يغادر الحديقة العامّة، ويدخل عالم الجامعة بقدم ثابتة. لكن، ليس لديه خيار، إذ يتعيّن عليه أن يغيّر نمط حياته أوّلاً بأوّل. منحة التقاعد القليلة التي ينالها والده، بعد أربعين عامًا من العمل، لم تعد كافية. هذا مع العلم أنّ والدته رحلت عن هذا العالم، أي أنّ والده ما عاد في حاجة إلى أن يخصّص نصف منحته لها.

منذ نعومة أظفاره ووالده يصطحبه إلى الأميراليّة. طريقته في تنظيف المصابيح الدوّارة كلاسيكيّة جدًّا، ربّما لأنّ الموادّ المستخدمة فيها كلاسيكيّة هي الأخرى. قارورات من مادّة الميكانو، وأحيانًا بعض قشور الليمون، والرماد، ويتمّ كلّ شيء بأحسن حال. كانا يمضيان ساعات طويلة في فرك أدنى الجوانب. وأحيانًا، يسمع والده يقول بينه وبين نفسه، بصوت مهموس: أنا أشبه ما أكون بمقدّم هذه المنارة. ألم يكن للأماكن المقدّسة في هذا الوطن أناس يضطلعون بتنظيفها، وتقديم يد المساعدة للزوّار والمصلّين والنساء والطلبة الذين يتلون القرآن؟ أنا خادم هذا المكان، وخادم لجميع البحّارة الذين يفدون على المنارة من جميع أنحاء الدنيا. لم يفكّر أحد ذات يوم في استخلافه بشخص آخر، أو بعسكري من المكان ذاته. اليوم، ما عاد في مقدوره أن يبلغ المنارة. قيل له بصيغة آمرة: إنّ ابنك هو السبب. المنارة فرد من أفراد أسرته، وها هو الشعور ينتابه بأنّه أضاعها إلى الأبد! زوجته

رحلت عن هذه الدنيا، وابنه عاد إليه بساق عرجاء مليئة بالندوب، وها هي المنارة بدورها تنأى عنه، مع أنّها جزء لا يتجزّأ من حياته. قال لأحد أصدقائه في يوم من الأيّام: عندما أكون في داري، أي في المنارة، أشعر بالسعادة الغامرة! أمّا حين يكون صحبة ابنه فيقول إنّه يقوم بعمل فنّان يسهر على نظافتها. ودّ أن يراه وهو يحلّ مكانه، بدلاً من أن يعمل في التنظيف داخل الحديقة العامّة. إبراهيم يعرف ما النحاس والبرونز والميكانو والخرق الصغيرة، بل هي جزء من تكوينه، هو الذي درس الرياضيّات والكيمياء. وكثيرًا ما يُعيد والده إلى رشده ببعض المرارة، حين يقول له: التنظيف مثل أيّ عمل من الأعمال الأخرى!

حامل شهادة الليسانس في الرياضيّات ليس قادرًا على أن يفهم سلوك والده. لاحظ أنّه صار يشدّد اللهجة عليه، وينفعل في كلامه منذ أن فقد زوجته. حقًّا، الوالد في حاجة ماسّة إلى أن يسرّ له بأشياء، أن يفضي إليه ببعض الأمور التي تبدو في نظره غير معقولة وغير مقبولة، في حين أنّ محيطه المباشر، بدءًا من ابنه، يرى فيه إنسانًا ينأى بسلوكه عن مقتضيات الحياة اليوميّة.

* * *

تغيّب إبراهيم عن عمله. تعمّد ذلك كأنّما ليتسبّب في إشاعة جوّ من الشكّ والإبهام في الحديقة العامّة. وفي الحقيقة، كان ينتظر حملة من حملات الشرطة أو أعوانها في قلب الليل، لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. قال لنفسه: لديهم طرقهم الخاصّة بهم. لاحظ ذلك بأمّ عينه في الحديقة العامّة، مع غريمه حميد الممتلئ غيرةً وحسدًا. لا يدري ما إذا كان سيثأر منه ذات يوم. وقد يعود تردّده في هذا الشأن إلى أنّه يفكّر جدِّيًّا في مغادرة البلد، والتهويم في أرض الله الواسعة. لكن، من يقبل به وبجسده المكدود المتهالك؟ ما عاد يفهم لماذا تميل إليه فتاة مثل ضاوية، وتحبّه حبًّا جارفًا، دون أن تفضي إليه بذلك. هناك أمور عديدة ستظلّ مبهمة إلى الأبد في هذه الحياة!

حين أيقظه والده في الصباح الباكر لكي يذهب إلى عمله، لم يصدّق أذنيه. من النقيض إلى النقيض. سمعه يقول بصوت متعب: ينبغي أن تبادر بالردّ على كلّ من يحاول إيذاءك. حاول أن يقنعه

بضرورة اتّخاذ الحيطة، فقال له وهو يناوله قهوته: أعلم أنّ لديك مشاكل، لكن، ينبغي أن تصمد، ألّا تتخاذل.

واستعدّ إبراهيم للمواجهة، فشرع في تحضير سيناريو صغير عن وضعيّته في صلب الحديقة العامّة. ألم يشعر بأنّ المدير نفسه يعوّل عليه في قطع الطريق أمام غريمه حميد؟ الخبيث! ها هو يحاول استثمار العلاقة العاطفيّة بينه وبين ضاوية. والأكيد أنّه يعمل لكي يجد بعض السند من عمّ الفتاة مباشرة. إبراهيم هو الوحيد القادر على إيصاله إلى الجنرال. ولكن، لن تنطلي عليه هذه الحيلة أبدًا، اللهمّ إلّا إذا حدث ما يجبره على ذلك.

عليه أن يأخذ قسطًا من الراحة، أن يتمعّن في ما تأتي به الأيّام القادمة، وينظر في الكيفيّة التي سيكون عليها ردّ فعل العساكر بعد قراءة مذكّراته. لكن، لم يا تُرى، لم يفكّر أبدًا في وضع الدفتر في مكان أمين؟ حميد يرصد حركاته وسكناته منذ تسريحه من الخدمة العسكريّة، وهو يعلم أيضًا أنّ جموح هذا الأخير ازداد منذ أن راحت ضاوية تعلن حبّها له أمام أنظار الناس كلّهم. ما فكّر يومًا في أنّ هناك من ينقّب في مختلف زوايا حياته. اليوم، يبدو أنّ منافسه وعدوّه في الوقت نفسه، يريد أن يجعل من هذا الدفتر ورقة رابحة، قادرة على الإضرار به حقًّا.

ليته استخدم بعض الرموز في تحرير مذكّراته! لو أنّه لجأ إلى المعادلات الرياضيّة في أثناء التدوين لاستطاع أن ينشئ عالمًا وهميًّا لا يقوى على فهمه إلّا بعض المستنيرين. صراحته هي التي

دفعته إلى تسجيل الحقيقة عن كلّ ما رآه وعاشه وعاناه. بل إنّه ذكر، وهذا هو البلاء، أسماء بعض الضبّاط، واستعرض بعض حكاياتهم العاطفيّة، ومناوراتهم، وألاعيبهم في سبيل ابتزاز الأموال، فكيف يستطيع أن يستأنف عمله ويعيش حياة طبيعيّة في هذا البلد؟ من الأفضل له أن يعود إلى الدار، وينتظر نزلة من نزلات الشرطة في أيّ وقت من الأوقات.

* * *

إبراهيم يكنس الحديقة في كلّ وقت، وينظّف التماثيل، ويسهر على حوض الأسماك الحمراء، ويمنع الأطفال من تخطّي الحواجز، وغيرها من عشرات الأشياء الأخرى. لماذا يحاولون النيل منه بهذه الطريقة المؤذية؟ ألم يسهروا بأنفسهم على تكوينه لكي يقوم بعمل ذي تقنيّة عالية؟

أنت كلب أجرب، يا إبراهيم! لم يتجرّأ أحد على معاملته بهذه الطريقة المشينة من قبل، لكن، أن توكل إلى غريمه حميد مهمّة الحطّ من شأنه عمدًا، ليبقى مجرّد عامل تنظيف في الحديقة العامّة، فذلك ما لم تعد ترضاه نفسه.

مضى النهار هادئًا، ثم هبط الليل بغطائه الرمادي، دون أن يتوقّف المطر عن الهطول، لكنّ ضاوية لم تكن في الموعد. لعلّ عمّها منعها من مقابلته. هو يعرف أنّ ضاوية ليست من النوع الذي يترجّى هذا أو ذاك، أو ينحني أمام رجل حتى وإن كان عمّها الجنرال. كلّا، هي لا تفكّر في أن تسعى إلى الاعتذار نيابة عنه،

وتعلم جيّدًا أنّ اللعبة تمّت فيما يتعلّق بدفتر مذكّراته. الدفتر موجود الآن بين يدي أولئك الذين لا يريدون أن تتحسّن الأوضاع في هذا البلد. ومعنى ذلك أنّ جميع تصوّراته وأفكاره عن النظام السياسي العسكري موجودة الآن تحت الغربال، في مكان ما. لا بدّ له أن ينتظر ردود الفعل في هذا الشأن.

* * *

ما الذي دهاها؟ ها هي تسأل عنه جهرة في أرباض الأميراليّة. أهل البحر ينظرون إليهما مبتسمين تارة، مستفسرين تارة أخرى. شدّها من يدها وابتعد بها نحو الشارع المطلّ على البحر. لو علم والده بهذا اللقاء لثارت ثائرته، فهو لا يحبّ أن يراه وقد غيّر وتيرة عيشه، ونظر إلى المجتمع نظرة مغايرة لما عهده فيه. أمّا هي فراحت، على سبيل التحدّي، تستفسر منه عن جنازة الضابط القتيل: هل نظّموا له جنازة تليق به؟

قالت له: أنت إنسان عظيم وساذج في الوقت نفسه، لأنّك تقبل بالعيش في غابة مليئة بالذئاب! وتعلّل بأنّه يشعر بالارتياح لأنّه صادق الضابط القتيل لبعض الوقت، ولأنّه عرف كيف يقدّم صورة طيّبة عنه في مذكّراته.

مطريّة ضاوية لا تكفي لوقايتهما معًا من رذاذ المطر. إبراهيم لا يُبدي استعداده للتحدّث إليها. أنظاره مصوّبة نحو الميناء في الأسفل، وفي المئات من الحاويات المطروحة على الأرصفة كيفما

اتّفق. وفجأة، توقّف واستند إلى الحاجز الحديدي المطلّ مباشرة على الحوض الجافّ الذي يجري فيه تصليح محرّكات السفن. هذا الجانب مخصّص للعساكر وحدهم، وفي جانبه العلوي ثكنة يعود تاريخ بنائها إلى أواسط القرن التاسع عشر.

تساءل أمام دهشة ضاوية: كيف يتمكّن المهرّبون من بسط نفوذهم، وإخراج الحاويات، على الرّغم من هذه الرقابة الشديدة؟ يتردّد في كلّ مكان من المدينة أنّ هؤلاء المهرّبين عرفوا كيف يستدرجون بعض الضبّاط، لكي يتعاملوا معهم في كلّ أمان، ودون أن تنال منهم يد الرقابة. ويُقال أيضًا إنّ سبب اغتيال الضابط يوجد ها هنا بالذات. لقد رفض رفضًا قاطعًا أن يقوم أصحاب الحاويات بإنزال بضائعهم في قلب الليل، لكي لا تقع عليهم أنظار الرقابة، ولكي لا يكونوا محلّ فضول الناس.

وعلى الرّغم من نفور ضاوية، تساءل إبراهيم بصوت عال: ما الذي ننتظره من حكّام لا يفكّرون إلّا في شراء ڤيلّات بالدينار الرمزي، واستجلاب الكماليّات لبيعها بأثمان مضاعفة بمئات المرّات؟ أمسكت به من ساعده ودفعته على مواصلة جولتهما في الشارع المطلّ على البحر. الوقت ليس وقت غضب على سلطة سياسيّة قذرة إلى حدّ النخاع. الأمور التي لم يطّلع المواطنون عليها أخطر بكثير وأبعث على القلق. ضاوية فتاة ثائرة الطبع، لكنّها تعرف متى وكيف ينبغي التنفيس عن مكبوت غضبها. قالت له بصوت هادئ: الأمر الذي يشغل بالي في المقام الأوّل هو كيف

أساعدك على الإفلات من شبكة أولئك المجرمين.

وفجأة، انطلقت في الضحك أمام دهشة إبراهيم الذي توقّف هو الآخر دفعة واحدة دون أن يعرف سبب هذا التغيّر المفاجئ! سألته بنبرة فيها الكثير من المزاح: أتعرف الحكاية الأخيرة؟ لقد ذهب غريمك لمقابلة عمّي من أجل خطبتي! ولم يبدر عن إبراهيم أيّ ردّ فعل. كرّرت له ما قالته، فأجابها بتساؤل آخر: وهل وافقت، يا ترى؟

وساد بينهما صمت مبهم لبضع دقائق. ثم تطلّع إلى وجهها فقرأ عليه علامات حزن مفاجئ، عندها أدرك خطورة البادرة التي أقدم عليها غريمه حميد. ثم أشرق وجه ضاوية حين رأته يشهر قبضته ويقول متذمّرًا: الملعون! يتبعني أنّى اتّجهت!

* * *

في صباح اليوم التالي، اصطحبت ضاوية إبراهيم نحو الجهة الغربيّة من المدينة. وجد نفسه جالسًا إلى جانبها في سيّارتها دون أن يسأل عن سبب هذه الجولة. ما كانت به أيّة رغبة في الترفيه عن نفسه. همّه الأوّل هو أن يعرف ما آل إليه دفتر مذكّراته، ووضعيّته في الحديقة العامّة أيضًا. قالت له ضاوية، حين أبصرته وقد سمّر أنظاره في الأفق البحري: إصرارك على معرفة أمور فوق طاقتك قد يؤدّي بك إلى الهلاك!

أوقفت السيّارة بالقرب من شاطئ رملي صغير. ألقت على المكان نظرة دائريّة، وقالت على وجه السرعة: انظر إلى ذلك الجسر الصغير المبني بالحجارة الزرقاء! لم يلاحظ إبراهيم أيّ شيء خارق في المشهد لا سيّما أنّه يعرف المكان منذ سنوات طويلة.

سارت ضاوية نحو الجسر أمام دهشة بعض الفلّاحين الذين يسكنون ضيعة مجاورة هي من بقايا المعمّرين الفرنسيّين. وقاحة

ظاهرة في حركتها ومشيتها. وسار إبراهيم في إثرها بخطو ثقيل. أشارت بيدها: انظر إلى هذا الجسر، يا إبراهيم! جسر قديم مبني بحجر أزرق جميل مقدود من صخور الجبال. تسلّقت ضاوية الجسر الذي ما عاد يؤدّي وظيفته السابقة. وانتظر إبراهيم أن تعرض عليه اكتشافًا خارقًا. الفلّاحون القلائل الذين كانوا يأخذون قسطهم من أشعّة الشمس الصباحيّة تابعوا حركاتها فوق الجسر. لم يتوجّهوا إلى قطعهم الأرضيّة لكي يفلحوها. هم، أيضًا، يكشفون عن وجوه متعبة بسبب وضعيّتهم المتردّية على مدار السنة.

ضاوية، وهي في موقعها الآن فوق الجسر، توجّه سبّابتها نحو إبراهيم آمرة ناهية. وهو ينتظر منها أن تكشف عن شيء جديد. قالت: إبراهيم، انظر إلى هذا الجسر الصغير! ليكن في علمك أنّ عمّي قرّر شراءه. أجل، قرّر شراءه، زاعمًا أنّه يريد استعادة الصخر الأزرق، لكي يستخدمه في بناء فيلّا جديدة! الحقيقة هي أنّ إبراهيم لم ير شيئًا جديدًا في هذا الكشف. همهم قائلاً: البلد كلّه ملك لهم، وهم يفعلون به ما يريدون. ألم يستول واحد منهم على مقلع حجري بأكمله؟ وذلك الآخر، أَلَم يقتلع عمودًا من بقايا العهد الروماني لينصبه في حديقة داره؟

اكتفى إبراهيم بأن قال لضاوية: أنت لا تأتين بشيء جديد. لو استولى واحد من أولئك اللصوص على بئر بتروليّة بأكملها، فإنّني لن أرى في ذلك أمرًا خارقًا.

وما أسرع ما دعاها إلى اتّخاذ طريق العودة.

لم يقل إبراهيم الحقيقة لضاوية. شعر بما يشبه الغثيان عندما أطلعته على الخبر الغريب، وزمّ شفتيه. لو كانت لهم القدرة على تقسيط الأوكسجين، لما تركوا شيئًا لغيرهم من الناس. الجشع الذي يسيطر عليهم ليس له مثيل في الدنيا.

الجسر الصغير الذي زاره إبراهيم مع ضاوية يعود إلى الفترة التي كان فيها المعمّرون الفرنسيوّن يستغلّون فلاحة الخضر على طول الشريط الساحلي. قرّروا حينها إقامة خطّ للسكّة الحديديّة بين المدينة الكبيرة والقرى الصغيرة التي يعيشون فيها. واستفاد السيّاح والمسافرون من ذلك الخطّ مدّة طويلة. غير أنّ تطوّر وسائل النقل دفع الناس إلى التخلّي عن الخطّ الحديدي الذي أسعدهم لبضعة عقود. هناك عدد من الجسور المماثلة التي أُقيمت فوق الجداول الصغيرة الهابطة من الجبال. لكن، لم يجرؤ أحد على النيل منها، لأنّها ظلّت تمثّل جزءًا لا يتجزّأ من الحياة على طول الشريط الساحلي. ها هو عمّ الفتاة يتّخذ قرارًا غبيًّا بشراء هذا الجسر الصغير، لكي يستخدم حجارته الزرقاء المصقولة في جهة أخرى. يبدو أنّ هذا الضابط غير مطّلع على تكلفة الحجر الأزرق، وإلّا لكان اشتراه مباشرة من أحد المقالع الحجريّة بسعر مقبول. هذه هي الجاهليّة الجديدة.

قال إبراهيم ساخرًا: هذا فصل جميل سأضيفه إلى مذكّراتي! وفي هذه الحال بالذات، ينبغي تخصيص صفحات أخرى حتى لا يبقى أولئك الذين يوجد الدفتر بين أيديهم على جوعهم وعطشهم!

غمره الإحساس بالسعادة حين تمعّن في جوانب هذه الفكرة. كلّ ما دوّنه في مذكّراته صحيح مضبوط. كلّ ما هو جميل في هذه الدنيا لا بدّ أن يكون مضبوطًا، والعكس بالعكس. لا أحد، ولا حتى أعداؤه اللدودون، يستطيعون التشكيك في صدقه. لن يقول أحد من الآن فصاعدًا هي خربشات شابّ مسحوق فَقَدَ ساقه في أثناء تأديته الخدمة الوطنيّة. منذ عدّة أشهر وإبراهيم يشعر بأنّه نصف إنسان. قليلون هم أولئك الذين على دراية بما يعانيه في قرارة نفسه. لن يستطيع العيش كغيره من الناس العاديّين، وذلك أمر بديهي.

لكن، يحدث له أن يتساءل عن الغاية من تدوين مذكّراته. هل سينشرها ذات يوم؟ هل سيجد الصدى الذي يبحث عنه لدى الناس منذ تسريحه من الخدمة العسكريّة؟ ضاوية قرأت مقاطع منها، فوجدتها مكتوبة بأسلوب تقريري يبعث على الإزعاج في بعض الفقرات. غير أنّها لم تقترح عليه أبدًا أن يراجع هذه الفقرة، أو يُعيد النظر في ذلك المقطع. توقّفت وقتًا طويلاً عند الجمل التي يُشير فيها إلى علاقته بها. وجدتها ملفوفة ببعض السذاجة الطفوليّة. أمّا فيما يتعلّق به هو، فإنّه ما كان يراجع ما يسجّله في دفتره الضخم. كلّ شيء يخرج تلقائيًّا من أعماق وجدانه، دون أن يشعر بالحاجة إلى إعادة النظر في هذا الجانب أو ذاك. يكفيه أنّه مقتنع بصواب أفكاره وصدق مشاعره. بل إنّ المقاطع المتعلّقة بحالته الصحّيّة، وبالآلام التي يعانيها حين يتدهور الطقس، يوردها على علّاتها.

* * *

آلام مبرّحة تناوبت جسد إبراهيم خلال اليوم التالي. أغفل تغطية ساقه في أثناء النوم، فنال البرد منها أيّ منال. طبيبه نصحه عدّة مرّات بتغطية أطراف جسده وتدفئتها، كلّما شعر بالبرد، شتاءً أو صيفًا. وعليه، قرّر ألّا يلتحق بعمله. لكن والده لم يمهله في هذه المرّة: ليس لك أن تتصنّع الكسل!

والده يعرف مقدار الآلام التي يعانيها، لكنّه مع ذلك قرّر أن ينزل عند أمره. توقّف قبالة النافذة وهو يستعدّ لمغادرة الدار، ونظر إلى حركة الناس في الخارج. ما كان من عادته أن يفعل ذلك. قال في نفسه: قد يوقفونني في أيّة لحظة لأنّني أوردت في دفتري عددًا من الحقائق عن الحكّام وعن المؤسّسة العسكريّة! لكن، ما الذي سيفعلونه بإنسان مقهور مثلي، لا يكاد يقوى على الوقوف على ساقيه كغيره من الناس الآخرين؟ ينبغي التمويه يومين أو ثلاثة أيّام فقط. لذلك، من الأفضل العودة إلى عملي وكأنّ شيئًا لم يحدث.

حميد في انتظاره أمام مدخل الحديقة. تأمّل إبراهيم الرسوم

البارزة المنقوشة على الواجهة الخارجيّة للحديقة. تصنّع القيام بذلك لأوّل مرّة في حياته. على الواجهة مشهد للمنارة التاريخيّة في الميناء، وقد بدت تحتها بعض الزوارق والمدافع المصوّبة نحو الأفق البحري. هي لوحة مستطيلة من البرونز الأسود، كان من عادة إبراهيم أن ينظّفها بين الحين والآخر. لقد أمضى الساعات الطوال في مسحها، وتلميع تعاريجها التي يستقرّ عليها دخان السيّارات والغبار الذي تسفيه الريح. ازداد اقترابًا من الرسوم، ثم مرّر عليها سبّابته اليمنى. ابتدره حميد الذي بدا عليه أنّه ينتظره لسبب محدّد: هيّا، ستتكفّل بتنظيف هذه النقوش فيما بعد، هذا إذا ما احتفظت بمنصب عملك في هذه الحديقة. المطلوب منك الآن أن توقّع على بعض الأوراق الإداريّة.

هل هو معاقب أم مطرود من عمله؟ لا بدّ له أن يعرف مصير دفتره وما يُراد له في أوساط الذين بأيديهم الحلّ والربط. قال، وهو يرفع يمناه متأفّفًا: فلتنقلب الدنيا رأسًا على عقب! المهمّ هو أن أستعيد دفتر مذكّراتي. ثم وجّه سؤاله إلى مدير الحديقة، على سبيل السخرية من حميد الذي وقف إلى جانبه يرصد حركاته وسكناته: هل أُلقي القبض على قاتل الضابط الكبير؟ لكنّ المدير تراجع إلى الوراء خائفًا. السؤال أكبر منه، وقد بدا ذلك من حركاته، عندما بسط أمامه ورقتين أو ثلاث ورقات لكي يوقّع عليها. وزاد من سخريته فأضاف متخابثًا: أنا بريء، أليس كذلك؟ إنّهم يريدون أن يلصقوا بي الجريمة التي ارتُكبت في حقّ صديق أحبّه وأحترمه كثيرًا!

غضب حميد، فوجّه إليه أمره وكأنّه ما يزال داخل ثكنة عسكريّة: خذ أوراقك، ولا تعد إلى هذا المكان إلّا إذا استُدعيت لكي تستأنف عملك أو لكي تحاكَم؟ أدرك إبراهيم حينئذ أنّ أصحاب الحلّ والربط يبحثون عن كبش الفداء، لكن، هل يقوى صاحب جسد مهزوز متهالك مثله أن يكون وراء جريمة يحار فيها الشيطان نفسه؟ لِمَ يا ترى، لم يلقوا به في السجن في انتظار محاكمته وإعدامه؟

استدار إبراهيم نحوه، وأطلق الملاحظة التالية: تريد أن تصير جنرالاً بأيّ ثمن، لكن، من سوء حظّك، لا قامة لك ولا همّة، كما يقول المثل الشعبي. شدّه حميد من ياقة سترته، فاضطرب توازن إبراهيم، ووقع أرضًا. وعاود الوقوف بصعوبة، ثم اتّخذ طريقه نحو الباب. في هذه اللحظة بالذات، أصرّ على أن يقول بصوت واضح: ودفتر مذكّراتي، هل قرأه أصحاب الإستراتيجيّات في هذا البلد؟ اقترب حميد منه دون أن يلمسه، وما كان من إبراهيم سوى أن سمّر نظراته في عينيه وهو يقول بنبرة فيها الكثير من السخرية: سأكتب بقيّة مذكّراتي. لا تتردّد في طلبها منّي إذا كانت لأصحابك الكبار رغبة في قراءتها. لن يكونوا في حاجة إلى أن ينقّبوا في ما لا يعنيهم. سأكون أكثر إقناعًا في الجزء المتبقّي من مذكّراتي.

الدفتر

(ها أنذا... الخرقة في يدي اليمنى، تساكنني، تعايشني، أو هي مغروزة في حزامي. لا بدّ من تنظيف وتلميع التماثيل المنصوبة في هذه الحديقة! هبل واللات والعزّى... لولا سعي والدي وترجّياته عند هذا وذاك لبقيت بلا عمل. أمضى المسكين أكثر من أربعين عامًا في أميراليّة البحر ينظّف المنارة الكبيرة لكي تهتدي السفن بضوئها، وعاش على الكفاف في معظم الأحيان. وسواء أأمطرت السماء أم صحت، كنت أراه يلبس زيّه الرسمي الأسود، ويضع قبّعته، قانعًا راضيًا، ويكون حاضرًا في أرباض الميناء ليتبادل بعض الحديث مع عمّال الأرصفة قبل أن يلتحق بعمله. ما هو مستقبلي، أنا، لو قرّرت البقاء، ها هنا، كمجرّد عامل تنظيف؟ الله أكبر، ليسانس في الرياضيّات ومعلومات جيّدة في الفيزياء والكيمياء، غير أنّ الأيّام تزداد سوادًا أمامي!

أهذه هي البداية، يا ترى، أم هي النهاية؟ يُقال إنّ الإنسان يضلّ طريقه في هذه الحياة، عندما لا يعرف كيفيّة تقدير الأشياء

حواليه. ولعلّني اليوم لا أعرف حتى معنى الحساب والتقدير، ولذلك، فإنّ كلّ شيء يلوب قبالتي.

كنت مسكونًا باللانهاية وما أزال! اللانهاية لا تعني أن يرفع الإنسان رأسه صوب أجواز الفضاء لكي يحدّد موقع هذا النجم أو ذاك، ويتطلّع إلى الأبعد فالأبعد. إنّها موجودة في كلّ ما هو حيّ، بما في ذلك حجارة الأرصفة. ومن قال إنّ هذه الحجارة جماد لا يعي شيئًا؟

أبحث عن اللانهاية في أوراق الشجر حين تزورها قطرات المطر، وفي هديل الحمام حين يمارس العشق في هذه الحديقة، وفي الشكل الهندسي العجيب الذي تتّخذه هذه المدينة البحريّة في كلّ مرّة، وفي العشرات من الأمور الأخرى التي تصبّحني وتمسّيني. ويطربني أن أبحث عنها بوجه خاصّ في حجارة الأرصفة حين تتعاورها أقدام المارّة. أنا اليوم أعرَف ما أكون بالحياة في الكتل الصمّاء، حتى وإن كانت في صلابة النحاس والحديد. ما قامت علاقة بين الإنسان والكتل الصمّاء إلّا وازدهت الحياة في هذه الجمادات. لكنّني أعترف بأنّني لا أحسن التعامل والتحاور مع التماثيل المنصوبة عسفًا وقسرًا في هذه الحديقة.

في الليل، حين ألملم جسدي المتهالك، لا أنظر إلى السماء لكي أواصل البحث، عن اللانهاية في النجوم. لا أميل أبدًا إلى هذا النوع من البحث مع أنّني قرأت الشيء الكثير عن حركات النجوم، وعن آراء العلماء في الامتداد الكوني. يروقني أن أنتظر

خشخشة بين الأشجار أو صوت قمريّة أخطأت طريقها. المنارة الدوّارة في الجهة الغربيّة من المدينة هي التي تشدّ انتباهي. أرى فيها القاصي والداني من النجوم، لسبب من الأسباب. انكسارات الضوء فوق صفحة البحر السوداء هي التي تحدّثني عن اللانهاية، أو عن بداية اللانهاية على الأصحّ. وأشعر حينها بضرورة رسم خريطة تضمّ جميع التفاصيل التي تتصارع في ذهني وفي أطراف مخيّلتي. في مرّة من المرّات، وضعت خريطة للميناء الترفيهي الصغير الرابض تحت المنارة الدوّارة الضخمة. ذلكم هو شأني كلّما اضطربت الأفكار في وجداني، ورفضت الهمود والركود. أقول في نفسي: الأمور على ما يرام طالما حدث مثل هذا التصادم في أعماقك، يا هذا!

يا لمفارقات هذا الزمن! جورج كانتور، بوانكاري، معادلات الدرجة الرابعة! إقليدس والخوارزمي والعشرات من علماء الرياضيّات الآخرين بدأوا يدخلون منطقة الظلّ في دماغي. وهم قد ينامون بعدها إلى الأبد. أشعر أنّ المسافة تتباعد بيني وبينهم بمرور الزمن. هل يتعيّن عليّ أن أتمالك نفسي، أن أمسك بلساني حيال هذا الخليط كلّه من المتناقضات؟ مدير الحديقة ألقى درسه عليّ منذ أوّل يوم: قم بهذا الشيء، ولا تقم بذلك! احرص على نظافة الممرّات والتماثيل والنقش البارز عند البوّابة الحديديّة. الأدهى والأمرّ هو أنّني أعاود اللقاء في هذه الحديقة بحميد العسكري، ذلك المشؤوم الذي كان مسؤولاً عنّي في أثناء مروري بمطحنة الشقاء، أي الخدمة الوطنيّة.

لنبدأ من هذه الخدمة الوطنيّة بالذات، ما دامت قائمة وراء مأساتي، ومآسي غيري من الشبّان الذين يجرّون نعالهم في أزقّة المدينة الكبيرة، دون أمل في أن تشرق شمس الحياة عليهم. ها أنذا أدوّن كلّ ما يخطر ببالي ودون تردّد. العقليّة العسكريّة هي التي صنعت مأساة هذا البلد! الأمر لا يعود إلى شهر أكتوبر من عام ١٩٨٨، أي إلى اليوم الذي عقد الشعب فيه العزم على أن يقلب النظام الجامد، فسال كالطوفان في الشوارع ليجرف كلّ شيء. المأساة تعود إلى عام ١٩٥٨، أي يوم قام هواري بومدين بما يُسمّى في تاريخنا بانقلاب العقداء. العقليّة العسكراتيّة تغلّبت على ثورة شعبيّة تحريريّة ضدّ المحتلّين الفرنسيّين. ومنذ ذلك الحين، لم يتطوّر البلد تطوّرًا طبيعيًّا. وحدث انقلاب ١٩ جوان ١٩٦٥ الذي شهد ذهاب الرئيس أحمد بن بلّة من الساحة السياسيّة، لصالح عصابة كانت تتخفّى وراء شعارات الثورة الاشتراكيّة، وغيرها من التسميات المبهمة. مأساة هذا البلد تضرب بجذور عميقة في تربة الخديعة والانتهازيّة. الأفكار نفسها، والسلوك نفسه! لست أدري ما إذا كنّا سنتخلّص من الزيف في يوم من الأيّام. أمّا أصحاب اللحى الأفغانيّة فهم من إنشاء النظام نفسه. الذين يمسكون بزمام السلطة هم الذين رخّصوا لهم بالتحرّك على هواهم. وبعد أقلّ من أربع سنوات ساحوا في البلد كلّه.

أنا ضحيّة من ضحايا هذا النظام. لست مستعدًّا لكي أغتفر ذلك!

ليسانس في الرياضيّات، ثم ماذا؟ خرقة في اليد دائمًا وأبدًا، أو هي معلّقة في حزامي. أنظّف هذه الوقاحات، هذه الغباوات، أي هذه التماثيل التي لا علاقة لها أصلاً بتكويني. الصعاليك ينصبون الرموز هنا وهناك، ويأمرون الناس بتبجيلها! هناك، من جهة، المحرّمات السبع أو العشر، وكلّ ما هو غير جائز، وهناك، من جهة أخرى، هذه الرموز الصخريّة والبرونزيّة المنصوبة في أرجاء هذه الحديقة، وفي أماكن أخرى من مدينتنا. ما أكثر ما ندّدوا في خطبهم ووسائلهم الإعلاميّة بالغزو الثقافي الغربي، لكنّهم في مقابل ذلك سكتوا فيما بينهم عن غباواتهم وحماقاتهم الأخرى.

ثورة اشتراكيّة، سوق حرّة، دولة إسلاميّة، مخدّرات مهرّبة، حاويات رجال المافيا الذين يحكمون هذا البلد، وألف شيء آخر! تلكم هي حصّتنا من الشقاء منذ أن تحرّر الشعب بالدم والنار عام ١٩٦٢. لكن، أين هي مُثُله العليا، ومن وضعها في المتاحف لكي لا يطّلع عليها أحد ويسير على هديها؟ تبخّرت بفعل عمل سحري من جانب أولئك السادة الموجودين في هرم السلطة. الليل يهبط الآن، وما زال يهبط على هذا البلد بجحافله العجيبة!

* * *

جسدي ما عاد يطاوعني، والظاهر هو أنّ الألم المبرّح لن يغادرني إلّا إذا أنا لفظت النفس الأخير. يتعيّن عليّ أن أبتلع قرصين من هذه الأقراص الملعونة التي بدأت تفعل أفاعيلها في معدتي وتلهب المصران الغليظ. طبيبي المعالج قاطع في هذا الشأن. ليس هناك علاج آخر. عظمة ساقي اليسرى مشوّهة حقًّا. لا أمل في أن تعود، ولو إلى جزء من حالتها الطبيعيّة. بين الحين والآخر، ينصحني والدي بالذهاب إلى الصحراء لكي أدفن ساقي اليسرى في الرمل. هو يعلم أنّني لا أعاني من داء المفاصل، بل من حادث سيّارة عسكريّة. خرجت حيًّا، لكن بنقص جسدي خطير جدًّا. ساقي اليسرى ضاعت في زحمة هذه الدنيا. الألم، ثم الألم، وليس سوى الألم. سأضع معادلة رياضيّة تلخّص هذا الألم. لم يقل لي الطبيب العسكري شيئًا عن مستقبل وضعيّتي الصحّيّة. الشيء الوحيد الذي رضي أن يقوم به هو التوقيع على شهادة تسريحي من الخدمة. وأنا اليوم أتلقّى مبلغًا تافهًا على سبيل

التعويض عن الأضرار. هذا المبلغ لا يغطّي تكاليف الأدوية التي أنا في حاجة إليها.

ليس هناك وجه مقارنة بيني وبين صاحبي سفيان، ذي العينين الزرقاوين. أحمد الله حتى وإن أنا عدت كسيحًا أجرجر ساقي اليسرى. أمّا هو فقد أضاع حياته إلى الأبد. شابّ لا يكاد يتجاوز الثانية والعشرين من العمر. ما كففت يومًا عن التفكير فيه وعن الشرّ الذي أُلحق به. حميد العسكري هو المسؤول عن الحادث. عند هبوط الليل، دفعنا، على الرّغم منّا، نحو طريق معزولة جنوبي مدينة معسكر، في الجهة الغربيّة من الوطن. كلّفنا بنقل الوقود إلى شاحنة عسكريّة تعطّلت في ربوة من الربوات. كنّا قد أنهينا دورتنا التفقُّديّة العاديّة لما بعد الظهيرة. حقده علينا معًا لا مبرّر له. في مرّة من المرّات، صُفع رفيقي سفيان لأنّه لم يرفع يده بالتحيّة العسكريّة. أمّا فيما يخصّني أنا، فإنّه ما انفكّ ينظر إليّ نظرة حقد وتحقير دونما سبب، لكأنّما كنت أريد به شرًّا، أو لكأنّما نلت من شرفه العائلي. ذلكم ديدن بعض الذين يعيدون إلى الأذهان ذكرى بعض حرّاس الغابات، في أثناء الحكم الاستعماري، وغيرهم من الأذلّاء الحقراء.

مرّت سيّارة الجيب فوق لغم منصوب في الطريق الجبليّة. والحقيقة هي أنّ الإرهابيّين أرادوا النيل من الشاحنة العسكريّة التي تعطّلت وعلى متنها عدد من جنود الخدمة الوطنيّة. وُضع اللغم في منعطف ضيّق لكي يستحيل تقديم العون إلى العساكر الموجودين

على متن الشاحنة. بوغتنا بالانفجار، لكنّني لم أتفطّن لحقيقة ما حدث. كلّ ما في الأمر هو أنّني أبصرت كرة حمراء ملتهبة أمام سيّارة الجيب، ووقعت في شبه إغماءة دامت حوالى ربع ساعة، أي إلى حين استعدت وعيي، بفعل ألم يشرّش في كامل ساقي اليسرى. لم أعرف ما آل إليه رفيقي سفيان. كان على المقود. أعترف أنّه ما كان يخشى شيئًا، على الرّغم من أنّ الطريق خطيرة، والمكان يعجّ بإرهابيّين معروفين. عدد من الفلّاحين الأبرياء وجنود الخدمة الوطنيّة ذُبحوا في المكان عينه. بين يديّ رشّاش كلاشنكوف، أمّا سفيان فكان له مسدّس يدوي مشدود إلى خاصرته. كنت أمازحه وأقول له: أنت تشبه ضابطًا ألمانيًّا من الحرب العالميّة الثانية. سفيان قنّاص جيّد، قلّما يخطئ الهدف. تميّز عليّ بأنّه يمتلك رخصة سياقة، ولذلك تعدّدت جولاته على متن سيّارة الجيب في الأماكن المجاورة لمدينة معسكر.

في المستشفى، علمت أنّه لفظ الروح على الفور في أثناء الانفجار. لم أبك، ولم أصرخ. وهل هناك من فائدة في البكاء والصراخ؟ وجدت نفسي أتخبّط في محيط هائل من النسيان. الألم المبرّح في ساقي اليسرى لم يترك لي أيّة راحة عقليّة أو جسديّة. قنانٍ عديدة من الدم نُقلت إلى جسدي طوال أيّام وأيّام. ساعدي الأيمن كاد يتحجّر من كثرة الإبر التي غُرزت فيه. والدي، المسكين والدي، انتقل إلى مدينة معسكر. لم يطلعني على وفاة والدتي. لكنّه كان مع ذلك سعيدًا وهو يراني حيًّا. لخّص الحياة

كلّها في جَملة واحدة: المهمّ هو أن تحيا، حتى وإن عشت ناقصًا جسديًّا، أو أعرج!

وصرت أعرج بالفعل! ظننت أنّ والدي وقع تحت سحر مدينة الأمير عبد القادر. أمّا أنا فالتصقت مرّات ومرّات بسرير المستشفى من شدّة الألم. فيض من القيء يندفع من فمي طول النهار. أذكر أنّني صحت في وجه والدي: ليس هناك أمير ولا ملك! حكايات البطولات ما عاد لها دور، ولا ينبغي أن يكون لها دور في بلدنا هذا!

* * *

أنا لا أفهم، وأعتقد أنّني لن أتوصّل إلى فهم السبب الذي دفع بالأمير، بعد إطلاق سراحه من سجن أمبواز، إلى استعراض فصائل من جيش الاحتلال في ساحة (الأنفاليد) بباريس. كان هناك عدد من الجنرالات في تلك الاحتفالات العسكريّة. وكان بينهم «سانت آرنو»، المسؤول الأوّل عن حرائق جبال الظهرة في الستّينيّات من القرن التاسع عشر! والدي ما زال يحترم الأمير، وأنا أيضًا. لكنّ سلوكه السياسي يفلت منّي. أنا أرى فيه شخصين: الأوّل محارب، متمسّك بالتقاليد، والثاني إنسان يعيش زمنه، لكن دون أن يتعمّق فيه. هو أشبه ما يكون بإنسان خرج لتوّه من مكان بارد معتم، فبهره ضياء الشمس. منذ أن زارني والدي، وأنا أمتنع عن التحدّث إليه عن هذا الفصل من حياتنا الوطنيّة، مع أنّني كنت قرأت على مسامعه عددًا من الكتب التاريخيّة التي تناولت حياته.

الألم يتراجع الآن، لكن يتعيّن عليّ أن أبقى على هذه الحال طيلة نصف ساعة، دون أدنى حراك. ينبغي أن أبلغ تلك الحال من

الرقاد التي يتحدّث عنها طبيبي المعالج. عندئذ أعرف أنّ الألم يكون قد زايلني لبعض الوقت، وأعرف أيضًا أنّه سيُعلن عن نفسه مرّة ثانية، في وقت لاحق.

مضت عليّ أيّام جهنَّميّة قبل موعد العمليّة الجراحيّة. وعلى الرّغم من أنّ المستشفى عسكري، أي له الكلمة الأولى والأخيرة في كلّ شيء، إلّا أنّه ما كان مجهّزًا تجهيزًا جيّدًا. في الدوائر العليا، كانوا يعلمون أنّنا في حالة حرب، وأنّه من الضروري توفير جميع الوسائل. لكن، أيّة أهمّيّة يمكن أن تُمنح لجندي بسيط من الدرجة الثانية، في بلد اضطربت أموره؟ ما حظيت يومًا بأدنى احترام من جانب من أجبروني على تأدية الخدمة الوطنيّة، على الرّغم من أنّني أحمل شهادة الليسانس في الرياضيّات. طريقتي في التفكير لا تشبه طريقتهم أصلاً. حاولوا أن يجعلوا منّي عسكريًّا، لكنّهم في واد، وأنا في واد آخر. تلك ذهنيّة عفى عليها الزمن. نسوا أو هم تناسوا أنّ الإنسان يتحوّل تلقائيًّا إلى عسكري عندما يبرز الخطر قبالته، وعندما يكون وطنه تحت وطأة التهديد.

وهكذا، رقعوا ساقي اليسرى كيفما اتّفق. صرت أعرج إلى الأبد. عظمة الساق التحمت، أمّا صفحة قدمي اليسرى فظهرت عليها نتوءات تحول بيني وبين المشي السليم. عظمة الساق لا تزعجني، بل صفحة القدم، هذه الملعونة التي ما عادت إلى حالها الأولى. السلاميّات تتراكب مع غيرها. قيل لي إنّه ينبغي القيام بما يشبه العمليّة الجراحيّة التجميليّة. وذلك ما يكلّف أموالاً طائلة.

لكنّني، لست سوى إنسان مسكين في أنظار أولئك السادة من الدوائر العليا.

تركت لحيتي تنمو على هواها في المستشفى، وذلك ما لم يعجب المسؤولين عنّي. ليس لديّ خاصّيّة من خاصّيّات أولئك الملتحين، لا على الصعيد الجسدي فحسب، بل وعلى صعيد العقل أيضًا. المسؤول الأوّل عنّي، أي حميد العسكري الذي ما زال يتبعني مثل الظلّ، جاء لزيارتي في المستشفى. لم يتمنّ لي لا شفاءً عاجلاً ولا شفاءً بطيئًا. بعد خروجي من المستشفى، علمت عن طريق ممرّض عسكري أنّ رفيقي ذا العينين الزرقاوين ما عاد من هذا العالم. آه، يا إلٰهي، القساوة شيء مجّاني لدى بعض الناس! يستحيل استئصالها، ووضع بعض الحسّ الإنساني مكانها.

أمضيت خمسة وأربعين يومًا في المستشفى. في اليوم الذي شعرت فيه أنّني قادر على التوكّؤ على عكّازين، طلبت مغادرة المستشفى. عرفت أنّ خدمتي الوطنيّة انتهت في اللحظة التي استعدت فيها وعيي، بعد انفجار اللغم. وبفضل الله، لم يدر بخاطري أبدًا أيّ مشروع في المجال العسكري. الرياضيّات هي حبّي الأوّل والأخير، وهي وراء سعادتي دائمًا وأبدًا، سواء أكانت تجريديّة أم تطبيقيّة. أنا لا أرى العالم إلّا من زاوية الأرقام والرموز الرياضيّة. وذلك بالذات ما أزعج حميدًا العسكري كثيرًا. يصرف بأسنانه عندما يفاجئني مع معادلاتي، في غرفة النوم بالثكنة أو على

متن سيّارة الجيب، أو حتى في مطعم الثكنة. هي دليل من دلائل الغيرة.

ها هو اليوم في هذه الحديقة التي تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر. ما الذي يبحث عنه بالضبط؟ قيل لي تمّ نقله إلى هذا المكان بسبب إجراء انضباطي. غير أنّني لا أصدّق ذلك، بل أعتقد أنّه استفاد من ترقية. من ثكنة في مدينة صغيرة، من خطر الوقوع بين أيدي القتلة من الإرهابيّين في أيّة لحظة، إلى حديقة عامّة في قلب المدينة الكبيرة. ينبغي التحقّق من هذا الأمر. أنا لا أثق فيه. أوشك أن يرسلني إلى الموت. رفيقي ذو العينين الزرقاوين ترك روحه تفلت منه ذات أصيل غائم. من المستحيل أن أنساه.

أعتقد أنّ حميدًا العسكري سيتكالب عليّ أكثر من ذي قبل. وجودي في هذه الحديقة سيذكّره على الدوام بالضرر الجسدي والنفسي الذي ألحقه بي.

رفيقي ذو العينين الزرقاوين كانت له نظرة صادقة هادئة إلى الحياة. ما التقيت أبدًا بمثل ذلك الصفاء في العينين. وراءهما يختفي نوع من السذاجة المبهمة. حضرت اليوم الذي انتقل فيه والده من المدينة الكبيرة، لكي يقوم بزيارته في الثكنة. بل إنّني شاركته في تناول الحلوى البسيطة التي أعدّتها والدته المسكينة، واقتسمناها فيما بيننا، نحن الثلاثة، في مقهى بمدينة معسكر. ما تجرّأ على رفع عينيه لكي ينظر إلى والده على سبيل الاحترام. تلفّظ ببعض الكلمات، ثم توقّف لكي يترك حركات أصابعه تنوب عنه في

الحديث. سأله والده: هل أنت في حاجة إلى دراهم؟ حرّك رفيقي رأسه يمنة ويسرة ورسم ابتسامة على شفتيه.

زرقة عينيه غابت إلى الأبد. ستظلّ حيّة في أعماقي طوال حياتي. كلّما نظرت إلى السماء، أو إلى البحر، أو إلى أيّ شيء أزرق، عادت صورته إليّ طاغية داحرة. حميد غير قادر على إدراك هذا الأمر. رفيقي عبارة عن زرقة صافية في البؤبؤ، وخصلة شعر متمرّدة، وبسمة تفيض سذاجة وطيبة. ما كان في حاجة إلى استخدام صوته لكي يفصح عن شخصيّته. ثمانية عشر شهرًا من العشرة، وأعتقد أنّني ما تحدّثت إليه وعنه بكلّ حرِّيّة مثلما أفعله الآن بعد وفاته.

لم أشهد جنازته. والدي هو الذي قدّم لي وصفًا عنها. كان مصدومًا، لكنّه لم يكشف لي عن حزنه العميق. أُسند إليه والد الضحيّة في أثناء الدفن.

الطقوس التي جرت فيها مراسم الجنازة هي التي آلمت والدي أشدّ الإيلام. حضر أبناء الحيّ كلّهم. جثمان رفيقي داخل صندوق ما كانت به أيّة فتحة زجاجيّة للنظر إلى وجهه المحروق. ما كان في مقدور أحد أن يتعرّف على وجه رفيقي، حسبما قيل لي. اللغم فتّت جسده المسكين. أمّا أنا، فوجدت نفسي وراء سيّارة الجيب. رفيقي تلقّى الشحنة كلّها في صدره وفي وجهه. تلك الزرقة كلّها في عينيه غابت لكي تفسح المجال لقطع حديديّة صدئة تفنّن الإرهابيّون في غرزها وترتيبها.

عشيّة يوم الدفن، جيء بكبش إلى منزل رفيقي. جثمانه بقي في المستشفى. لماذا يا ترى؟ هل ليجري ترقيعه بصورة أحسن، أم لإعادة الزرقة إلى مكانها الأوّل؟ صندوق مستطيل من خشب غير مصقول وُضع لبضع دقائق عند عتبة الدار البائسة. جيء ببعض العساكر الشبّان بهذه المناسبة. رافقوا الصندوق في صمت، وبالكثير من الخوف على وجوههم. قال لي والدي إنّ أمّ رفيقي لم تبك. أنا الآن أبكي عوضًا عنها. ورفيقي ووري التراب بعد نصف ساعة. كلّا، لم تطلق دفعة من رصاصات لتأدية التحيّة العسكريّة له مثلما هو معمول به. رفيقي ما كان له الحقّ في ذلك الشرف الكاذب. ما كان ليهتمّ بذلك أبدًا، لا ولا كنت لأهتمّ به أيضًا لو قُدّر لي أن أفارق الحياة بالطريقة نفسها.

كبش وصندوق مستطيل، ذلك هو رفيقي الذي عاشرته ثمانية عشر شهرًا. لعلّ هناك من قال عنه: لقد مات في سبيل الوطن!

* * *

فكّرت في طلب منحة لتحضير شهادة عليا في الخارج. ذهب كلّ شيء أدراج الرياح. ما يحزنني اليوم هو أنّ أبناءهم، حتى الأغبياء منهم، لم يتهرّبوا من تأدية الخدمة الوطنيّة فحسب، بل إنّهم استفادوا من منح دراسيّة كبيرة في الخارج. فهل خُلقت لكي أكون مجرّد مكنسة في حديقة عموميّة؟

اجتهدت لكي أحصل على عمل محترم يليق بمستوى تكويني العلمي، ووجّهت عشرات الرسائل إلى الإدارات والمؤسّسات، لكن مسعاي خاب. اللعنة تتبعني حيثما حللت وارتحلت. وفي فترة من الفترات، فكّرت في طريقة للحصول على منصب معلّم رياضيّات في إحدى ثانويّات المدينة الكبيرة. الحادثة التي تعرّضت لها هي التي حدت بي إلى مثل هذا التفكير. ألا ما كان أغباني! ظننت أنّ وضعيّة ساقي هي التي وقفت وراء الرفض الذي جُوبهت به في كلّ مكان. ثم أدركت أنّ صراحتي هي التي عرقلت مسعاي. في المستشفى، وتحت طائلة الألم، شتمت عددًا من الممرّضين

والأطبّاء العسكريين. سلوكي هذا سُجّل بعناية في التقارير الموجّهة إلى أصحاب الأخذ والردّ في السلك العسكري. ولم يجد هذا السلك أفضل من أن يسدّ الطريق أمامي، لأنّه ظلّ يتصرّف في كلّ ما هو عسكري ومدني على حدّ سواء. موقف هو أشبه ما يكون بحجر الصوّان. أتمنّى أن تستبين الأمور بين ما هو عسكري وما هو مدني!

وهكذا فكّرت تفكيرًا جدّيًّا في الذهاب إلى الخارج، لكي أواصل دراستي، حتى وإن أنا لم أحصل على منحة جامعيّة. جواز سفري نفسه، لم أحصل عليه إلّا بعد عدد من التدخّلات. لا جواب وصلني من جانب الهيئات العسكريّة حول سبب التأخّر. وما الذي كنت أنتظره من هيئة مماثلة تحرم أكثر من مليون شابّ من العيش العادي؟ أجل، أكثر من مليون شابّ كانوا ينتظرون بطاقات الإعفاء. الحياة في نظر الهيئة العسكريّة ما كانت توجد خارج الدائرة العسكريّة والعسكراتيّين. جنرالات تتمّ ترقيتهم كلّ عام! أجل، حفنات من جنرالات. وفي أثناء ذلك، لم تسنح الفرصة لتعيين ماريشالات أيضًا. كلّ ذلك والمواطنون من جيل الغد يتخبّطون في البؤس. لا عمل ولا مسكن ولا أمل في العيش كغيرهم من عباد الله الآخرين.

لم يطلب أحد من هذه الهيئة العسكريّة أن تعطي الموافقة لإنشاء حزب متطرّف باسم الدين. لا أحد طلب منها أيضًا أن تنظّم انتخابات تشريعيّة، ثم تحكم على نتائجها بالإلغاء بعد ذلك.

وجدت نفسي في قلب الموجة، لا غير، ذلك لأنّني كنت أنهيت دراستي بنيل الليسانس في الرياضيّات، وتعيّن عليّ أن أؤدّي ما يُسمّى بالخدمة الوطنيّة.

* * *

كلّا، تصايحت في المستشفى عدّة مرّات، أنا لا أحبّ العسكريّة. لا أحبّ العسكراتيّة، ولا أحبّ أولئك الذين يتبجّحون بالانتماء إليها، ويحكموننا بالقوّة، سواء أكانوا عساكر أم محاربين قدماء، أم ملتحين أفغانًا! وبطبيعة الحال، صرخة اليأس التي أطلقتها لم تمرّ دون أن يلتفت إليها أحد في أروقة المستشفى حيث تعوّدت أن أقوم ببعض الخطوات في الصباح وفي المساء. أتساءل الآن: كيف، يا ترى، لم يضعوني في مصحّة للأمراض العقليّة؟

أجل، فرضوا مناهج سوڤياتيّة على هذا البلد لكي يسيطروا عليه أحسن السيطرة. أحد أصدقائي في الجامعة لقي مصرعه في شاطئ مهجور، بعد أن رفض الانصياع لأوامرهم. انخرط طواعيّة في الجيش حسبما قيل لي، وما أسرع ما نفر منه، فقرّر مغادرته بعد بضعة أسابيع. المسكين، لقي نهاية عنيفة. مع أنّه كان يحبّ الحياة. كان يحبّ تناول البيرة بعد الرابعة عصرًا. صورة والدته تعاودني كلّما وقعت عيناي على امرأة ملتحفة بالسواد في المدينة

الكبيرة. تفاهم كبير بين الاثنين. ما الذي آلت إليه والدته؟ الله أعلم. ما عادت هناك جولات، ولا بيرة بعد الرابعة عصرًا. الموت العنيف الوحشيّ هو الذي كانت له الغلبة.

سأروي ذات يوم جميع مصائب أصدقائي، خاصّة أولئك الذين كانوا في الجيش، والذين فقدوا حياتهم أو حبّ العيش بكلّ بساطة. عشرات السنين من الحروب والبؤس، ألم تكف، يا ترى، لإضاءة الطريق أمام أولئك الذين يحكموننا بالقوّة؟ الإرهاب الذي نعانيه الآن لم يولد عفوًا وبدون مقابل. هناك سبب لكلّ شيء، وإلّا فلماذا نؤمن بهذا الشيء أو ذاك؟

لا أقوى على منع نفسي من عقد المقارنة مع الإنكشاريّين في العهد العثماني. هم، على الأقلّ، وجدوا من يعطيهم الضربة القاضية عام ١٨٢٦. وبالفعل، انتهى الأمر بمحمّد الثاني الإسطنبولي إلى أن يقوّض ذلك السلك تقويضًا، بعد أن سيطر زمنًا طويلاً على الإمبراطوريّة العثمانيّة، وكانت له الكلمة الفصل في جميع شؤونها. بدلاً من أن يقوموا بأعمالهم، كسند للسلطة القائمة، راحوا يتدخّلون في مسائل تسيير الإمبراطوريّة. الوزراء هم الذين يعيّنونهم، وكذلك أيضًا، الحاكم الأعلى للإمبراطوريّة. لا أحد يتحرّك دون مباركتهم. الموت هو الذي يسير في إثرها، وفي جميع الظروف! وفي كلّ مرّة، يقلبون القدر مثلما هو معهود فيهم، ويقصون هذا ويجيئون بذاك الآخر.

ألم نقم بالشيء نفسه عندنا في عام ١٨٠٣؟ الإنكشاريّون

الطامعون في كلّ شيء ما كانوا يريدون إلّا حكّامًا طائعين بلا أيّة شخصيّة. ولذلك ما انفكّوا يستبدلون الدايات كلّ ثلاثة أشهر. فصل الرأس عن الجسد، الخنق، التسميم، لا شيء من هذه الممارسات خفي على أولئك الإنكشاريّين. بل ذهب بهم الأمر إلى أن عيّنوا غسّال أموات دايًا على الجزائر، طمعًا منهم في أن يرفع علاواتهم. غسّال أموات على رأس دولة! وبعد ثلاثة أشهر، انتهى بهم الأمر إلى أن يخنقوه في غرفة إحدى محظيّاته. انكشاريّونا نحن كانوا مباشرين أكثر من انكشاريّي القرن التاسع عشر: اغتالوا الرئيس على المباشر في مركز ثقافي على مرأى ومسمع من العالم أجمع. التلفزيون، التلفزيون البائس، على الرّغم من أنفه، صوّر المشهد وبثّه عبر العالم كلّه.

* * *

لا أحبّ الإفاضة في الحديث عن الإنكشاريّين. همجيّة أكثر من هذه لا توجد، في رأيي، عبر العالم كلّه. والأغرب في الأمر هو أنّهم يتحدّثون بعدها عن الحفاظ على الدولة.

الذهنيّة العسكريّة هي المسيطرة في هذه العامّة. هي موجودة في كلّ مكان. إدارتها تخضع خضوعًا أعمى لهذه العقليّة. حميد هو الذي يفرض قانونه في جميع جنباتها. يشغل نفسه في كلّ وقت بدسّ أنفه في ما لا يعنيه. الناس يعرفون أنّه موجود ها هنا من أجل عمل محدّد: إنشاء ما يشبه المتحف! سأنقّب عن هذا الموضوع في الأيّام القادمة. التماثيل المنصوبة في الحديقة تكشف عن غباء أولئك الذين يحكموننا، وهي في مقابل ذلك سبب شقائي ومأساتي. لا شيء يفلت من عين حميد: الأشجار، وبركة الأسماك الحمراء، والمكانس، والداخل والخارج، والطالع والهابط. البركة التي كانت وراء سعادتي عندما كنت طفلاً أختلف إلى المدرسة في هذه الجهة، صارت بركة سوداء تتخبّط فيها جميع

المخلوقات الشيطانيّة. أنا لا أرى اليوم فيها إلّا أشباحًا. حميد يجيء ليلقي عليها نظرة منقّبة. مهمّة مشبوهة لشخص لا يمكن أن يوصف إلّا بأنّه مشبوه. لم، يا ترى، لم يرسلوه إلى الأماكن التي يلعلع فيها الرصاص كلّ يوم، وحيث السكاكين تجزّ رقاب الأبرياء جزًّا في كلّ ليلة؟ طعام المدافع إنّما هو شبّان هذا الشعب. أُناس مسحوقون مثلك، يا إبراهيم، هم الذين يتحوّلون إلى طعام للمدافع. أنت الدليل القاطع على ذلك. بل يمكنك أن تضع في هذا الشأن معادلة رياضيّة. أجل، الشقاء في هذا البلد يمكن إدراجه ضمن معادلة رياضيّة.

أنا الأعرج، المنبوذ، المسحوق، المدحور، ووالدي، الأرمل، الرجل الذي عمل في منارة الميناء أكثر من أربعين عامًا، نجسّد مأساة هذا البلد! والدي ما عادت لديه الشجاعة لكي يختلف إلى مقاهي الميناء، على جاري عادته فيما مضى. كلماته محسوبة وكذلك حركاته. ينظر إليّ فيرتدّ طرفه إليه من شدّة حزنه على مصيري! ليس هناك سوى صديقه، صاحب القارب، الذي يجد لديه بعض العزاء. الاثنان أرملان. يخرجان معًا على متن القارب نفسه منذ أكثر من أربعين عامًا. والاثنان تلفحهما الريح والشمس، وبؤس الأزمنة الجارية. لا أحد يفهمهما في هذه الدنيا. البؤس يجالس أخاه البؤس، ويصل الأمر بهما إلى التفاهم قبل أن يغامر الواحد منهما من أجل إحداث ثغرة ما في جدار هذه الحياة.

تنظيف يليه تنظيف آخر! ينبغي تلميع التماثيل وكنس أعواد القشّ، وإلّا تراكمت في كلّ مكان من الحديقة. التلميع ثم التلميع وليس سوى التلميع، هكذا يقول كلّ من مدير الحديقة وحميد. أنا أقول ينبغي أوّلاً نزع الأوساخ عن التماثيل وعن المحيط المباشر للحديقة العامّة. حكّامنا يحبّون النيل من العقل في هذا البلد. عالم رياضيّات يحمل خرقة في يديه، طوال النهار! لم، يا ترى، ننشئ جامعات ونستقدم أساتذة من أنحاء الدنيا؟ أمام أدنى حركة، هنا أو هناك، يصيح أولئك الحكّام في وجه الناس: أنتم غير وطنيّين. لا تحبّون وطنكم، ولا تحترمون ذكرى شهدائكم الأبرار. أسطوانة مشروخة لكثرة ما دارت في أفواههم وحناجرهم. تفهاء، تفهاء ألف مرّة! متى ستشرق علينا شمس جديدة في هذا البلد؟ ومتى نبقى محكومين من قِبَل الجهالة الجهلاء؟ خضنا حربًا أهليّة، لكن، لم يتغيّر شيء، بل ازداد الوضع سوءًا. الحكّام أنفسهم في المكان عينه، على الرّغم من أنّ الشعب تقيّأهم منذ زمن طويل. الدول الغربيّة التي يتلقّى منها حكّامنا الميامين العون المادّي والأخلاقي وجدت فيهم بيادق، على حسب المقاس والغاية، لكي تحرّكهم كيفما تشاء. أنا ألعن ثورة لم تغيّر نفسها بنفسها، بل وحادت عن هدفها الأوّل!

ألا يكفيني أنّني أحمل اغتيالاتهم وأحقادهم مثل وشم عميق الغور، شديد السواد، في أعماق وجداني؟ فلِمَ أحملهم اليوم في هذه الأشكال البرونزيّة؟ من قال لهم إنّني على استعداد لكي

أشاركهم في قلب القدر الإنكشاريّة؟ أنا لست منهم.

لقد أحببتهم في يوم من الأيّام، وصارت كراهيّتي لهم أكبر من حبّي لهم. أنظر إلى الواحد منهم، فتدهمني موجة عارمة من الإشفاق عليه. وما أسرع ما تتحوّل هذه الموجة إلى جبل من الكراهية أتسلّقه ولا أريد الهبوط منه.

* * *

من الخشونة إلى النعومة، على حدّ تعبير بعض الذين يعرفون دخائل اللعبة السياسيّة! بدأوا بالتمويه، فقضوا على بضع سمكات، ثم ارتقوا في الأسباب فوجّهوا ضربة قاضية لرئيس الدولة على المباشر في التلفزيون. تصرّفوا على طريقة أهل التصوّف، ولكن من أجل بلوغ غاية جهنّميّة، فتوقّفوا عند هذه المحطّة أو تلك لبعض الوقت. ثم نزعوا ملابسهم الثقيلة شيئًا فشيئًا. العجيب فيهم هو أنّهم لم يتعثّروا في الطريق، على الرّغم من طولها وصعوبتها. الجريمة سهلة الارتكاب، خاصّة منها الجريمة السياسيّة! ذلك ما ألاحظه وأنا أستعرض تاريخ بلدي، منذ أن نال استقلاله. الحاجّ العنقا، مطربنا الشعبي الكبير، قال ساخرًا في يوم من الأيّام: لو عاد الاستعمار لأخبرته بما ارتكبه الاستقلال في حقّي! ما الذي نقوى على فعله حيال سلوك الإنكشاريّين هذا؟

لنعد الآن إلى الديكور الداخلي، إلى هذه التماثيل داخل الحديقة العامّة، إلى ذلك النقش البارز عند مدخلها بالذات. والدي

شارك غير ما مرّة في تنظيف تمثال الأموات الذي نصبه المحتلّ الفرنسي، على سبيل تشريف من سقطوا في الحرب العالميّة الأولى. قاعدة التمثال تُشير إلى أنّه أقيم في هذه الحديقة في عام ١٩٣٠. لا شكّ في أنّه كان قطعة فنّيّة رائعة. لم يبق منه اليوم سوى كتلة حجريّة شائهة بعد أن نال منه إزميل نحّات آخر بدعوى تحويله شكلاً ومضمونًا. هي شتيمة وُجّهت لفنّ النحت، ذلك كلّ ما في الأمر. كان في مقدور السلطة أن تنصب تمثالاً آخر يكون خير دليل على كفاح الشعب كلّه في سبيل حرّيّته. لكنّها ارتأت لسبب من الأسباب أن تكلّف نحّاتًا خاوي الوفاض، لكي يزيل وجوه العساكر والأسلحة ومشاهد المعارك. التمثال الحالي لا علاقة له بالحرب ولا بفنّ النحت أصلاً. أعترف أنّه يصعب عليّ تنظيف هذه الكتلة من الجرانيت. أنا مضطرّ للصعود على سلالم لكي أبلغ القمّة. حمائم تأتي لتعشّش على مدار السنة على الأشجار في الحديقة، وفي الساحة الواسعة بالقرب من بركة الأسماك الحمراء، وطيور بحريّة لا تجد شيئًا كبيرًا تأكله في أرباض الميناء، فتجيء باحثة عن الغذاء هنا بالذات. آه، زوارق الصيد ما عادت تلقي بصغار الأسماك أو بقاياها حين عودتها من عرض البحر، على غرار ما كانت تفعله في الأزمنة الماضية. قال لي والدي: يندر في العادة أن ترى طائرًا بحريًّا يطير فوق الحديقة أو يتوقّف بداخلها. الطيور البحريّة كانت متخمة! هي عدوّي اليوم، ولذلك ينبغي مقاومتها. سينتهي بي الأمر إلى السقوط ذات يوم من أعلى تمثال الأموات. لماذا جرى تشويهه؟ أموات الحرب العالميّة الأولى كانوا ينتمون

إلى جنسيّات الأرض كلّها. كان بينهم عشرات الآلاف من الجزائريّين. وكان من الواجب الحفاظ على التمثال في المكان عينه وبالشكل نفسه. ثم ماذا، هل كانت وطنيّتنا ستتأثّر لو أنّه بقي على حاله الأولى؟

سأتسلّق بعد يومين هذه الكتلة من البشاعة لكي أنظّف روث الطيور. الرائحة ليست قويّة، اللهمّ إلّا صيفًا حين تُرسل الشمس أشعّتها القويّة ويتناقص الماء في الحديقة.

بعد الهبوط من قمّة التمثال، أمضي في العادة ربع ساعة في دلك ساقي اليسرى داخل الشاليه. الألم الحادّ لا يغادرني حقًّا إلّا بعد أن أتناول قرصًا أو قرصين من المسكّنات. أكاد أفقد توازني عندما أبصر بحميد وهو يدور حول قاعدة التمثال متذرّعًا بتفقّد المكان. ما عدت أحتمل وجوده حولي. هو يلحّ، ولا يريد إلّا أن يكون حاضرًا عندما تبرمج إدارة الحديقة تنظيف تمثال الأموات. بدأت أعتقد أنّه يريد التخلّص منّي جسديًّا، تمامًا مثلما فعل ذلك مع رفيقي ذي العينين الزرقاوين.

معاناتي الثانية هي مع تمثال هذا الحمّال، حمّال الأرصفة، الذي نُصب منذ وقت في مكان مشمس من الحديقة. كان الشبّان يجيئون إلى هذا المكان ليستعرضوا عضلاتهم أو لكي يتراشقوا بكلمات وحكايات فيها الكثير من الألوان الشعبيّة الصاخبة. لست أدري من اتّخذ القرار بتنصيب هذا التمثال في هذا المكان بالذات، مع أنّه كان من المنطقي أن يكون داخل الميناء أو في أرباضه. إنّه

أشبه ما يكون بكازيمودو، ذلك المعتوه الشائه، بالإضافة إلى أنّه من البرونز. عند الأصيل، يتحوّل إلى قطعة جديرة بأن توضع في متحف الرعب نفسه. رجل من سنّ معيّنة، يرتدي زيًّا على غرار حمّالي الأرصفة في القرن التاسع عشر، ويحمل على كتفيه عبئًا ثقيلاً. ما علاقته بهذه الحديقة؟ حتى حمّالو الأرصفة البحريّة والبحّارة من مينائنا لا يختلفون إلى هذه الحديقة. إنّهم يفضّلون المقاهي التي تطلّ على جفنة الأميراليّة.

واجهة هذه الكتلة من البرونز ملساء، وتسمح للخرقة أو المكنسة بالمرور عليها بسهولة، لكن يصعب تنظيفها جيّدًا. في العادة، أنطلق من الأسفل نحو الأعلى. ذات يوم، عندما بلغت قمّة الرأس، شعرت برعشة الخوف تسري في أطرافي كلّها. وجدتني وجهًا لوجه مع جبهة ملاكم وشاربي قرصان من القرون الماضية. ما كان النحّات ملهمًا حين شرع في تشكيل الرأس. لعلّه كان تحت تأثير فكرة شيطانيّة، وذلك هو سبب الرعب الذي يبثّه هذا التمثال في نفسي، وفي نفوس الذين يتأمّلونه. روث الطيور يترسّخ في الأعلى بين الأخاديد والنتوءات، على الرّغم من أنّها لا تحطّ على التمثال إلّا نادرًا. يخيّل إليّ أحيانًا أنّ روثها يتزاوج مع البرونز، حتى إنّ اللون الأخضر يصير رماديًّا بمرور الزمن. والدي ينصحني باستخدام الميكانو، هذه التركيبة الكيماويّة العجيبة، وأنا أعارضه، وأؤكّد له أنّ الأمر يتعلّق بالبرونز، أي بتشكيلة من الحديد والزنك، وليس بالنحاس، مثلما هو الأمر عليه بالنسبة لمختلف أجزاء منارة الأميراليّة.

ما أكثر ما وجدت نفسي منشغلاً بهذا التمثال من البرونز. يحدث لي أيضًا أن أستيقظ في قلب الليل لكي أحقّق في تاريخ البرونز، والتحف الفنّيّة البرونزيّة التي أُنجزت منذ العصور القديمة. وأخلص إلى أنّه أبعد ما يكون عن تراثنا الثقافي، ولذلك لا بدّ من أن أخوض مجالات أخرى في البحث. أنا لا أعرف حتى كمِّيّة الحديد والزنك التي استُخدمت لتشكيل هذا التمثال. ولا أعرف ما إذا كان التذويب قد تمّ في بلادنا. هذه الكتلة الشائهة تطاردني في منامي أحيانًا. عبثًا تتزيّن، تجعل نفسها محبّبة للنفس، لكنّني أجدها موسومة بلعنة لا أفهم سببها.

الشبّان يحبّون الثرثرة عند قاعدة هذا التمثال. ذات مرّة، جاء مناضل سابق في الحركة الوطنيّة، ولفظ الروح عند أصله. كان مريضًا فيما قيل لي، ولعلّه كان حزينًا على ما آلت إليه أمور السياسة في هذا البلد، ولذلك أكثر من الاختلاف إلى هذه الحديقة للترويح عن نفسه. كان يحمل معه قفّة صغيرة يضع فيها كتبه وصحفه. لكن، ذات يوم، توقّف قلبه عن الخفقان، ولفظ الروح. أسأل الله ألّا تنتهي حياتي في هذه الحديقة! لو حدث ذلك، لاعتبرت نفسي ملعونًا إلى أبد الآبدين.

ها هي مديريّة الحديقة تكلّفني بتنظيف حوض الأسماك الحمراء. يتعيّن عليّ أن ألتقط جميع الأعواد التي تتساقط على صفحة الماء. المديريّة تقول لي أيضًا إنّه يجب عليّ أن أحرص على ألّا يلقي الأطفال بأيّ شيء صوب الأسماك الحمراء. لا

فتات ولا خبز، فهم قد يسمّمونها عن غير وعي منهم. ليس الأمر سهلاً، لكن سأحرص على ذلك. رياضيّات وأسماك حمراء، لم أستطع أن أمنع نفسي من التعليق على هذا الأمر الغريب في أعمق أعماقي.

أنا لا أتوافر على الأدوات اللازمة للقيام بهذا العمل كلّه. حدث لي، عندما كنت تلميذًا في المدرسة المجاورة، أن ألقيت بفتات الخبز مرّات ومرّات صوب حوض الأسماك الحمراء. بل إنّني ألقيت بحبّات الكاكاو وببعض النقود، ولم يجئ أحد ليلومني، لا ولا والدي نفسه. بركة الأسماك لا تختلف عن صورة تمثال الحمّال، وغيره من الأشياء الأخرى في هذه الحديقة. في الحقيقة، ينبغي نقل الأسماك إلى حوض آخر. لو استمرّت على هذه الوتيرة لقتلها مسؤولونا السياسيّون أنفسهم. هذه البركة بُنيت في نهاية القرن التاسع عشر، على غرار الشاليه. هناك وثائق بداخله تُثبت ذلك. الآن، ما عاد شيء في هذه الحديقة يؤدّي وظيفته الأولى.

مشكل آخر في هذه الحديقة يزعجني كثيرًا. إنّه ذلك النقش البارز بمحاذاة البوّابة الكبيرة. خمسة عشر مترًا طولاً، وثلاثة أمتار عرضًا من النحاس. جفنة الأميراليّة تحتلّ فيه مكانة الصدارة بمراكب حربيّة من العهد العثماني، مع بحّارة يستعدّون للهجوم، ومدافع مصوّبة صوب عرض الخليج. أمّا في أعماق هذا المشهد فتظهر جبال الأطلس التلّي. لا شيء يوحي بالتغيّر في هذا النقش الجهنّمي. الغبار يستقرّ في تضاعيفه، والسيّارات تلفحه بغازاتها في

كلّ يوم. قيل لي إنّ اللوحة البارزة من النحاس الخالص، أمّا أنا فلا أرى شيئًا من ذلك. أمرّر خرقتي، لكنّ القذارة تظلّ في مكانها. أنا مقتنع بأنّ الأمر يتعلّق بتزاوج شائن من التشكيلات المعدنيّة الرخيصة. ما يحزّ في نفسي خاصّة هو أنّ الناس لا يولون بالاً لهذه النقوش. لكأنّ مضامينها لا تعنيهم من قريب ولا من بعيد. النقوش تزيّن مدخل الحديقة لكي تُعيد إلى أذهان الزوّار والمتفسّحين جزءًا من تاريخهم. يخيّل إليّ أنّ كلّ شيء يقع على عاتقي. الدنيا كلّها تجري ورائي. سلبيّة الناس حيال هذه النقوش تقع عليّ أنا في المقام الأوّل. قال لي حميد ذات يوم: لو اجتهدت في تلميع جوانب النقوش البارزة لتوقّف الناس قبالتها طيلة ساعات وساعات. الغبيّ! نسي أنّ الناس، إذا ما تراخت هممهم بسبب سلوك الحكّام، فإنّهم يفضّلون أحد أمرين: الموت غيظًا أو الثورة بغاية هدم كلّ شيء. النقوش البارزة في زمن السلم يرتاح لها كلّ من وقعت عيناه عليها. لكن، ما عاد الأمر كذلك في أيّامنا هذه. تبذير لا سبب له، فكيف يولي المواطن المقهور أهمّيّة ما لأمور تاريخيّة جرى تحويل مضامينها لصالح كمشة من الحكّام؟

أعترف بأنّني معجب بالمضمون التاريخي في هذه النقوش البارزة. لكنّني، وأنا أحمل الخرقة في يدي أو أعلّقها في حزامي من أجل تلميعها مرّة في الأسبوع، أجدني أشيح بوجهي عنها. في هذه النقوش جميع العناصر التي أحبّها: البحر والأميراليّة ومراكب الزمن الماضي، والبحّارة الذين كنت أحبّ أن أكون واحدًا منهم. أمرّر الخرقة وأتراجع لكي أرى أثرها. القذارة والروائح الكبريتيّة

التي تلهب أنفي أقوى من خرقتي ومن يدي. وعبثًا أضغط، فلا لمعان ولا بريق. لن يذهب بي الأمر إلى حدّ التفكير في إزالة هذه النقوش، فأنا أراها في مكانها حقًّا، لكن ينبغي إيجاد الموادّ الضروريّة التي تكشط القاذورات كشطًا. مديريّة الحديقة بخيلة، بل هي شديدة الشحّ. حميد يسيّر الأمور حسب مزاجه. هناك مبالغ يصرفها على أصدقائه رغم أنف المدير، ومبالغ أخرى يخصّصها لتنظيم بعض الحفلات والأعراس خدمة لأغراضه. أمّا بخصوص ابتياع الموادّ الكيماويّة الضروريّة لتنظيف الحديقة، فإنّ ذلك يخرج من دائرة اهتمامه، وإن حدث ما لا يرضي خاطره، انهال بانتقاداته على المدير العامّ. أتساءل الآن: ما دخل عسكري مثله في هذه الحديقة؟

سيأتي يوم تفيض فيه الكأس. في استطاعتي أن أشهر مخالب القسوة، على الرّغم من حبّي لهذه النقوش البارزة. وهل هناك من هو أقسى من حميد، ومن الذين عيّنوه للقيام بمهمّة غامضة في هذه الحديقة نفسها؟ أنا أرى في هذا الأمر شتيمة وتلطيخًا لذاكرة أولئك الذين ماتوا في سبيل الوطن. يغشّ في اللعبة، ويسرق، وهو قادر على ارتكاب جرائم لا تُغتفر. لا مناصَ لي من الصبر. آمل ألّا ألجأ إلى ما لا تُحمد عقباه مع هذا العسكري وإدارة الحديقة العامّة.

* * *

بلغني هذه الأيّام أنّ هذا العسكري موجود هنا للقيام بمهمّة هي من أغرب المهمّات. ما سمعت بمثلها قطّ من قبل. هي أشبه ما تكون بشطح سريالي. العيب ليس فيه هو، بل إنّني أعترف بأنّه ذكيّ جدًّا، ويعرف من أين تؤكل الكتف، إذا ما تعلّق الأمر بالتزلّف والتقرّب من السادة الذين يحكموننا رغم أنوفنا. إنّه يعرف جوانبهم النفسيّة معرفة عميقة. يعرف ما يحبّونه وما يكرهونه. وإلّا، فكيف تراه نجح في إقناع مسؤوليه السامين بضرورة إنشاء متحف خاصّ بالجزمات العسكريّة، في هذه الحديقة بالذات، وبالمنفعة التي يمكن استخلاصها من وراء ذلك؟

أمر مذهل، أليس كذلك؟ ما فتئ يزعم، حسبما عرفته من أفواه بعض الإداريّين في الحديقة، أنّه يأنس القدرة من نفسه على جمع الجزمات العسكريّة منذ عام ١٨٣٠ أو، على الأقلّ، ما تبقّى منها. آه، يا لهذه السخافة! أحبّ أن أراه وهو يبادر إلى إنجاز مثل هذا المشروع في هذه الحديقة. وأحبّ أن أعرف البقعة التي سيقيم

فيها هذا المتحف الذي لن يكون له نظير في العالم كلّه. أكرّر القول، العيب ليس عيبه هو، وإنّما هو عيب أولئك المجانين الذين يحكموننا. أين، يا ترى، سيجد هذه التحف العسكريّة العجيبة؟ هل في وزارة الدفاع الوطني، أم لدى الخواصّ، أم لدى المجاهدين القدامى الذين شاركوا في حرب التحرير؟ الشيطان! هو واثق من نفسه. أمّا أنا، فإنّني لا أعرف إلّا شيئًا واحدًا: بقايا أحذية الأمير عبد القادر موجودة، وهي معروضة في متحف الجيش. لا شكّ في أنّه سيطلب ضمّها إلى متحفه العجيب. ولا شكّ أيضًا في أنّ حفل التدشين سيحضره كبار الضبّاط وقيادة الأركان العامّة.

لو أنّه فكّر في إنشاء متحف للأسلحة لكان ذلك أمرًا مقبولاً، ولسهّلت عليه المهمّة. الأسلحة، والقديمة منها بوجه خاصّ، موجودة في كلّ مكان، وسيكون في مقدوره بإشارة واحدة من إصبعه أن يحصل عليها من مالكيها رأسًا. لو فعل ذلك لتعيّن عليه أن يسيح في كامل التراب الوطني، وسأكون أنا في هذا الشأن، قد تخلّصت منه لمدّة طويلة. غير أنّ مشكلتي تكمن في بقائي في هذه الحديقة العامّة الملعونة.

لعلّه فكّر جيّدًا في البقعة التي سيقيم عليها متحفه العجيب. يحسب حسابًا لكلّ شيء. لِمَ، يا ترى، لا يفكّر في إنشاء قاعة للدمى المتحرّكة على سبيل المثال، حتى يتمكّن تلاميذ المدارس من الترويح عن أنفسهم في هذه الحديقة؟ ولكن، هل هو قادر على

فعل الخير؟ أنا أشكّ في ذلك. التلاميذ الذين يتوقّفون أمام مشهد النقوش البارزة لا يجدون من يشرح لهم مضامينها. يحدث لي أن أتخلّى عن منشفتي ومكنستي لكي أقدّم بعض التفاصيل التاريخيّة أمام دهشة معلّميهم. أمّا قبالة تمثال الأموات، فأنا جامد الجمود كلّه، وأعترف أنّني أشعر بالخرس، لأنّه يصعب عليّ كثيرًا أن أقدّم وصفًا مقبولاً عمّا لحق بالتمثال من تشويه. تمثال حمّال الميناء، لا أفكّر فيه مطلقًا. تقاطيع الوجه المكدود تدفعني على التراجع والنكوص. أجل، يحدث لي أن أضطلع بدور الدليل من تلقاء نفسي وبطيبة خاطر. فيما مضى، كان هناك إنسان مختصّ يخرج من بناية الإدارة، لكي يوضح للزوّار والتلاميذ ما ينبغي توضيحه.

كلّا، ليس هذا العسكري قادرًا على الاضطلاع بهذه المهمّة التربويّة. عقله في جهة أخرى، وقد عرف كيف يتحايل على مسؤوليه. فيا لهم من أغبياء!

ضاوية تطلب منّي أن أصحبها في زيارة هي من أغرب الزيارات. تزعم أنّ عمّها، الضابط السامي، ينوي شراء شيء لم يعهده الناس في هذا الوطن: جسر صغير قديم مبني بالحجارة الزرقاء. من ذا الذي يفكّر اليوم في امتلاك جسر؟ عمليّة من هذا القبيل لا وجود لها حتى في العالم الغربي، حيث كلّ شيء معروض للبيع والشراء. منذ أن حدّثتني عن هذا الموضوع وأنا أتمعّن فيه باستمرار. وصلت إلى النتيجة التالية، وهي أنّ كلّ شيء يمكن أن يُباع ويُشترى في بلادنا. لو سارت الأمور على الوتيرة

نفسها فإنّنا سنرى هذا أو ذاك يشتري بئرًا بتروليّة بأكملها. ومن يمنعه من ذلك؟ سيكون لنا يومها أباطرة دون حاجة منهم إلى أن يبذلوا جهودًا خارقة للاستحواذ على هذه البئر البتروليّة أو تلك.

لا أظنّ أنّ ضاوية تكذب أو تتوهّم. عمّها، الضابط السامي، ذلك الذي لا أحبّه، والذي لا يحبّني بطبيعة الحال، سبق له أن وضع يده على عدد من المشاريع الاقتصاديّة التي أطلقتها الدولة خلال السنوات الماضية. وعليه، ليس من المستبعد أن يركب رأسه ويفكّر في شراء جسر قديم. ولكن، لِمَ، تراه، يريد امتلاك جسر فقد وظيفته الأولى بدلاً من أراض فلّاحيّة وعمارات؟

يقال إنّ الفلّاحة استحوذت على رؤوس أولئك الذين يحكمون هذا البلد بالرّغم منّا. عسكري شابّ لا يساوي فلسًا يقرّر بينه وبين نفسه إنشاء متحف للجزمات العسكريّة، وضابط سام يضع يده على مقلع للحجارة، وثالث، يضع يده على السكّر، ورابع على القهوة، والسلسلة ما تزال طويلة، وتعد بأنّها ستزداد طولاً.

هل من الممكن أن يتفتّح هذا البلد ويزدهر ذات يوم، بمثل هذه الذهنيّات؟ كلّا، وألف كلّا! حتى الشمس نفسها قد تغيب عن سمائنا إلى الأبد.

ها أنا أتساءل عن السبب الذي يدفع بضابط سام إلى شراء جسر قديم دون أن أجد الإجابة، اللهمّ إلّا في الجشع ثم الجشع.

* * *

حميد العسكري، فيما قيل لي، موجود في بناية الإدارة ويريد أن يتحدّث إليّ. حول ماذا، يا ترى؟ برنامج تنظيف الحديقة، أنشره كلّ أسبوع، في سبّورة الشاليه الخاصّ بأدوات التنظيف. ما الذي يريد قوله لي على وجه التحديد؟ لا شكّ في أنّه يدبّر لي مقلبًا ما. علاقتي بضاوية تزعجه أيّما إزعاج. إنّه لا يحتملها. أشعر بذلك كلّما جاءتني ضاوية زائرة أو عندما تقع أنظاره علينا معًا في مكان ما من المدينة الكبيرة. هذا الخبيث يتبعها حيثما حلّت وارتحلت، وأعلم علم اليقين أيضًا أنّ ضاوية لا تكنّ له أيّ ودّ. تقول لي إنّها تنفر منه، ومن الدنيا كلّها، عندما تشعر بأنّه يطاردها. ها أنذا أفترض أنّه سيتحدّث إليّ عن ضاوية، إذ ليس من المستبعد أنّه يرغب في أن يطلب يدها. بلغني، من جهة أخرى، أنّه طلب وساطة بعض من مسؤوليه السامين من أجل مقابلة عمّ ضاوية. لن أتراجع أبدًا بخصوص هذه المسألة. ستحدث مشاكل بيني وبينه دون شكّ. المسألة مسألة شرف وعزّة وكرامة. لديه ميزة واحدة

عليّ: عمّ ضاوية يريد منّي أن أبتعد عنها، لأنّه يرى أنّني من طبقة دونيّة، وينسى في الوقت نفسه أنّ رقيّه في السلّم الاجتماعي هو مجرّد حادث عرضي. إنّه مدين بذلك لحرب التحرير وللسلك العسكري اللذين أعطياه بعض الاعتبار الاجتماعي. وفيما عدا ذلك فإنّه لا يساوي شيئًا كبيرًا في ناظري.

ثم، هناك والدي الذي يرغب في أن أزداد اقترابًا من عائلة صديقه الحميم، صاحب القارب. والدي، وأنا أفهم ذلك منه، مترمّل مثل صديقه هذا، وأقدّر نظرته إلى هذه الحياة، لكنّه يتغافل عن أمر جوهري وهو أنّني، رغم قصوري وعرجي، أحبّ أن أعيش حياتي، وفقًا لنظرتي إليها. وتبقى مسألة المسائل معلّقة بيني وبين حميد العسكري، والحرب لا بدّ أن تقوم بيننا في يوم من الأيّام. لن أترك له المجال فارغًا على أيّة حال. كفاني ما تكبّدته منه. كان وراء عاهتي الجسديّة المستديمة، ولا أريد له أن يكون، مرّة أخرى، سببًا وراء خيبتي العاطفيّة. لقد اختبأ كثيرًا وراء القبّعة العسكريّة واللون الكاكيّ. ينبغي أن يعلم أنّ الوقت حان لكي يفهم بأنّ حياتي ملك لي وحدي فقط. لا علاقة لي به ولا بالذهنيّة العسكريّة التي يتبجّح بها على سبيل الاعتزاز ويستخدمها من أجل تحقيق طموحه الأرعن في الوقت نفسه.

* * *

أيّ وجهة سأتّخذها الآن؟ أنا في خطر، لكن في مقدوري أيضًا أن أشكّل خطرًا على الآخرين. صديقي، الضابط السامي، المسؤول عن خفر السواحل، يأتي لكي يستنشق الهواء من حين لآخر في ممرّات الحديقة. ما أكثر ما حاولت لفت انتباهه إلى الأخطار التي قد يتعرّض لها حين يلاعب طفليه تحت الأشجار، وقبالة بركة الأسماك الحمراء. هو من ألطف الرجال في هذا البلد. لا شيء فيه يشعرني بأنّه عسكري، على الرّغم من أنّه عسكري حقًّا. حادث عرضي، فيما أظنّ، جعله يصير عضوًا في هذه المؤسّسة التي أضرّت كثيرًا بالبلد. أحيانًا، يكشف عن تقاطيع لا تشوبها شائبة من همّ أو حيرة، وأحيانًا أخرى، يبدو عليه أنّه تحت وطأة أفكار كالحة السواد. لكنّه لا يقول لي شيئًا. يحدث له ألّا يردّ على استفسارات طفليه. حميد العسكري يكاد يتمسّح به لخدمته، ولكن، بأفكار خبيثة مبيّتة في دماغه. يموت غيظًا حين يراه يتحدّث إليّ. وعندما أدعو صديقي لتناول الشاي داخل

الشاليه، ثم أرافقه إلى بوّابة الحديقة، أعلم أنّ غريمي العسكري لن يتركني وشأني. أسئلته كلّها تنصبّ على صديقي الضابط، والموضوع الذي تحدّثنا فيه. يا له من ضبع يحبّ الجيف ونهش عظامها!

* * *

صديقي الضابط السامي أنيق الهندام حتى وهو في أوقات الراحة بالحديقة. في الحقيقة، أنا لم أعرفه بمناسبة زياراته للحديقة، بل قبل ذلك بوقت طويل. كان يحدث له، وهو الضابط السامي، أن ينزلق بين أفراد الشعب، وأن يركب، بين الحين والآخر، متن قارب صديق والدي لكي يقوم برحلة صيد. وكان يحدث، لي بطبيعة الحال، أن أكون ضمن طاقم الجولة البحريّة. يوم عرف بالحادثة التي وقعت لي في الجهة الغربيّة من الوطن، شعر بالحزن العميق. أرسل إليّ ببعض المال، وأمر بأن يُعتنى بي في المستشفى.

ثارت ثائرته عندما أبصر بي، والخرقة في يدي، داخل الحديقة. شابّ مختصّ في الرياضيّات يقوم بشؤون التنظيف في حديقة عامّة! والظاهر هو أنّه إنسان خارج اللعبة الخبيثة التي يمارسها الآخرون. عسكريّ، لكنّه عسكريّ طيّب في الوقت نفسه. قلت، وأنا أراه غير ما مرّة يذرع ممرّات الحديقة: لقد عيّنوك، يا

صاحبي، على رأس خفر السواحل من أجل أداء مهمّة حسبوا لها ألف حساب. لم يقل لي شيئًا في هذا الشأن لكنّه أشعرني بذلك. هم يحتاجون إلى إنسان مثله من أجل تسهيل المهمّة، مهمّة إرساء السفن ليلاً، من أجل إنزال بضائعهم وإخراجها من الميناء دون أن يراهم أحد أو يراقبهم. هذا الأمر يشغل باله كثيرًا، خاصّة وأنّه يشعر بأنّه عبارة عن مطيّة ليس إلّا. أعترف بأنّني أريد منه أن يكفّ عن التجوّل في أطراف الحديقة. قد يصير فريسة سائغة بين أشداق أعدائه من رجال المافيا، أو من الملتحين الأفغان، سواء بسواء!

الشريط الساحلي طويل جدًّا، ألف ومائتا كيلومتر تقريبًا، فلِمَ تراهم يريدون إنزال بضائعهم في ميناء مدينتنا الكبيرة، دون غيره من الموانئ الأخرى؟ هناك أكثر من ألف وسيلة لممارسة التهريب، فلِمَ هذه السفالة كلّها من جانبهم؟ يُقال إنّ رئيس الدولة يحبّه ويحترمه كثيرًا، فلِمَ تراه، عيّنه على رأس خفر السواحل؟ لِمَ لَمْ يرسله كملحق عسكري في سفارة من السفارات، أو يعيّنه مستشارًا لديه؟ بل لِمَ لَمْ يدفع به إلى التقاعد ويتركه يتمتّع بحياته مع طفليه اللذين أنجبهما بعد أن طعن في السنّ؟

أشعر بخفقان قلبي بمجرّد أن أراه يغادر الحديقة. أبصر بقامته المديدة وهو يواجه خطر الموت في أيّة لحظة. وألقي نظرة خاطفة على الممرّات، خائفًا من أن يكون هناك قنّاص مختف في أطراف الحديقة. في المرّة القادمة، سأقترح عليه أن يخرج إلى عرض البحر مع صديق والدي، أو أن يذهب للتجوّل على زورق من

زوارق البحريّة العسكريّة. ولكن، هل يكون حينئذ بمأمن من الخطر؟ المجرمون سكنوا جميع الأماكن، بما في ذلك البحر. وخفر السواحل، هل يكون في مقدورهم أن يدافعوا عنه ويحافظوا على حياته؟

سفن ترسو كلّ يوم في الميناء وعلى متونها حاويات مختومة يُمنع رجال الجمارك أنفسهم من الاقتراب منها. ذلكم هو المشكل. سيّارات ومخدّرات ومحاريق، وأسلحة وقهوة وسكّر، وغيرها من السلع غير الشرعيّة، أو تلك التي لا تخضع لأيّة رقابة، أيًّا ما كانت هذه الرقابة. المافيا قائمة بالمرصاد لكلّ متطفّل. وهي تسهر على القضيّة، بحكم أنّها قضيّتها الخاصّة. إنّها أدهى وأمرّ من مافيا الإيطاليّين في أميركا. هي مافيا، مكوّنة من مجموعة محدودة، ولا تفيد أيّ فرد من أفراد هذا الشعب. مافيا قد لا يذهب بها الأمر إلى أن تكون وراء بورجوازيّة صغيرة، أي ثقافة جديدة، أو تطلق مشروع حضارة جديدة. لن يكون لها لا بيتهوڤن ولا ڤيكتور هيغو ولا المتنبّي. بل ستعمل دائمًا وأبدًا من أجل البرهنة على أنّها تهتمّ بالجيف فقط.

* * *

غدًا، سأخرج مع والدي في جولة صيد مع صديقه الحميم. سأتصالح مع زرقة البحر. والدي يرغب في إقناع صديقه بالامتناع عن بيع قاربه لاستكمال عدّة زواج ابنه. هو في حاجة إلى بعض المال لإقامة العرس. القارب في حوزته منذ أكثر من أربعين عامًا، وقد يقع في ملكيّة شخص آخر لا يعتني به كما ينبغي. والدي حزين عندما يخطر بباله أنّ جزءًا من حياته قد يذهب وسط ضباب الضرورات اليوميّة. صديقه حصل على قوته اليومي، بفضل هذا القارب، طيلة عشرات السنين. يصطاد على متنه، ويتجوّل بالسيّاح الأجانب في خليج الجزائر، ويبيع بعض السلع للمسافرين. وكم من مرّة كان والدي خير مساعد له. وإذا ما حدث واحتاج إلى بعض المال، سارع والدي إلى توفيره له أو إلى تقاسم أجرته الشهريّة معه. ما أشدّ حزنه اليوم وقد عجز عن تقديم يد العون لصديقه!

عرف الصديقان الترمّل. والدي، قبل عام ونصف، وصديقه،

منذ حوالى أربعة أعوام. لا أحد منهما يرغب في الزواج مرّة ثانية. والدي يفضّل الركون إلى صمته الداخلي. يكفيه سعادة أنّه يراني قبالته حيًّا أُرزق. لم أعد إليه داخل تابوت، مثل صديقي ذي العينين الزرقاوين. وذلك أهمّ شيء في ناظريه.

أتمنّى ألّا يتحدّث والدي إلى رفيق حياته عن عزوبتي. لا شكّ في أنّه يرغب في أن يراني وقد تزوّجت بنت صديقه هذا. أعترف أنّني لم أفكّر في مثل هذا الأمر من قبل. ضاوية، إلى حدّ هذه اللحظة، هي التي سيقع عليها اختياري الأوّل، لو تعيّن عليّ أن أفكّر في الزواج ذات يوم. أنا مشغول بأمور أخرى.

ألا ما أشجَع رفيق والدي! يريد حياة هنيئة لابنه، ولا يتردّد في بيع قاربه، من أجل استكمال عدّة الزواج. لكن، هل في مقدور الإنسان أن يواجه طوارئ الحياة بالمنطق؟ هل فكّرت أنا لحظة واحدة في أنّني قد أصير أعرج ذات يوم، أو في أن تكون بنت أخي ضابط كبير عاشقة لي؟ هذا يبيع قاربه، قوت يومه، ورفيقه الدائم على مدى أربعين عامًا، بينما يعمل الآخر كلّ ما في مقدوره لكي يجتذب أنظار فتاة، لا تميل إليه، وهكذا دواليك.

على أيّة حال، سأخرج للصيد غدًا، وسأطّلع في المكان عينه على مجريات الأمور. وسيكون في مقدوري أن أتمعّن في وضعيّتي كمواطن في هذا البلد الذي يريد أن ينبذني نبذ النواة.

والبقيّة ستأتي حتمًا.

... وأرادوا به كيدًا

عجيج لا آخر له عند مداخل المدينة الكبيرة، حيث حدثت المذبحة. أكثر من ستّمائة قتيل، جلّهم قضوا تحت ضربات السواطير الصدئة في حيّ نشأ منذ فترة قصيرة. معظمهم كانوا يعملون على استكمال سكناتهم وتجميلها. قال عدد من الشهود الذين زاغت أبصارهم، من هول ما رأوا، إنّ الإرهابيين جاؤوا على متون شاحنات وسيّارات، وفي لحظة خاطفة، أبادوا كلّ من في الحيّ، على الرّغم من أنّه لا يبعد أكثر من مائتي متر عن ثكنة عسكريّة يُفترض فيها أن تحمي الجميع.

يقع هذا الحيّ على بعد ثلاثة كيلومترات رأسًا من مقرّ رئاسة الدولة، لكن لم يحرّك أحد إصبعه الصغير، لا في الثكنة، ولا في الرئاسة. ولم يحتج الإرهابيّون إلى استخدام الرشّاشات. أغرب ما في الأمر هو أنّ الرئيس لم يشعر بالحاجة إلى الانتقال إلى المكان عينه. مستشاروه الأقربون نصحوه بالبقاء حيث هو. اطّلع إبراهيم على الخبر في أزقّة المدينة الكبيرة، ولم يبد أيّ استغراب. مئات

الجثث المشوّهة دُفنت على وجه السرعة، بالليل وبالنهار. خشي المسؤولون وطأة العار، لكنّ العار يلاحق دائمًا وأبدًا أولئك الذين يزعمون أمام الملإ أنّهم شرفاء.

حين عاد إبراهيم إلى الدار امتنع عن متابعة نشرة الأخبار المصوّرة. قال إنّ الجريمة والكذب يسيران جنبًا لجنب في ركاب السلطة القائمة. الحقيقة قد لا تظهر مع أولئك المجانين الذين يسيّرون شؤون هذا البلد، حسب أمزجتهم وأهوائهم. لا بدّ من قوّة طاغية لكي تقتلعهم من الجذور وتحرق بقاياهم. العالم كلّه اطّلع على المذبحة، أمّا أهل هذا البلد فلا. بالوعة عجيبة فعلت أفاعيلها، هي أشبه بالمكان الذي ابتلع فيه البحر فرعون الجبّار، ومع ذلك لم يتغيّر أدنى شيء. في هذا الجانب ملتحون يزرعون الرعب دونما سبب، وفي ذلك الجانب الآخر، سلطة متفسّخة لا تفكّر إلّا في الحفاظ على مصالحها نكاية في الأغلبيّة التي تُعاني ما تعانيه ليلاً ونهارًا.

في قلب الليل، حين استبدّ الأرق بإبراهيم، بلغه نشيج والده. أدرك أنّه يذرف دمعًا سخينًا على أولئك الناس الذين نالت منهم الشواقير والسكاكين، فشوّهت أجسادهم. سمعه بعد ذلك يرتّل بعض آيات القرآن الكريم، ثم يصلّي، على الرّغم من أنّ الفجر لم ينبلج بعد. تحوّل القلق في أعماقه إلى ما يشبه كرة مطّاطيّة تعترض حلقه. قام وأعدّ قهوة بينما دعاه والده إلى أن يعود إلى فراشه. من المستحيل عليه أن يعود إلى النوم. القرية التي أُبيدت عن آخرها حاضرة قبالته، يراها من خلال عيني والده المحمرّتين.

* * *

قرّر إبراهيم أن يحضر جنازات المئات من ضحايا المذبحة. وعلى غرار جميع الناس الآخرين، احتفن التراب وألقى به صوب القبور التي افتُتحت أخيرًا. لاحظ أنّ بعض القبور ما كانت عميقة الغور على جاري العادة، لأنّه كان من الضروري دفن الضحايا على وجه السرعة، والحرص في الوقت نفسه، على ألّا تُرتكب مجزرة أخرى في المقبرة.

لن ينسى إبراهيم أبدًا ذلك الذي تخلّف عن ركب الجنازات. في اللحظة التي استعدّ فيها للخروج من المقبرة، أبصر بشابّ ينزل من سيّارة صغيرة، وبين يديه جثمان رضيعه. قفل راجعًا وسار صامتًا خلف الشابّ الحزين. حضر دفن الرضيع الذي ذبحه المتوحّشون. قامة الوالد الفارعة تصاغرت بفعل الحزن. لم يفهم ما حدث في داره بعد أن هبط الليل. حين عاد في الصباح الباكر من المزرعة التي يعمل بها حارسًا ليليًّا وقعت أنظاره على مشهد الدم القاني. ذلك كلّ ما أفضى به إلى إبراهيم.

هذا الأب يعيش في كوخ على أطراف الحيّ الذي حدثت فيه المذبحة. وعلى غرار جميع بؤساء الدنيا، زارته جحافل المتوحّشين. أدّت له زيارة دمويّة. سأل إبراهيم: كيف ينصر الله من لا يريد أن ينصره؟ يستحيل أن يقدّم العون لأمثال أولئك القتلة. ثم غاب بين أشجار المقبرة وكأنّه خارج الزمن الإنساني.

وفي المساء، خُيّل إلى إبراهيم أنّه يقف على مشهد من مشاهد ما بعد الحرب. صمت يصعب تفسير أسبابه لشدّة ما بدا المحيط الطبيعي خاملاً فاترًا. مدينة موتورة، خجلة من جريمة ارتُكبت في أحشائها مباشرة. الميناء هو الآخر تلفّع بلحاف مغبرّ على الرّغم من الرطوبة الثقيلة. الطبيعة نفسها تضمّ الكثير من البائسين بين ظهرانيها، وكلّهم من الفقراء الذين خدعهم النظام السياسي العفن. هل يستطيع أن ينتشل نفسه من هذه الحالة؟ وهل في مقدوره أن يستعيد صوابه؟

قال له والده: ستعود الأمور إلى مجاريها ذات يوم، فعلّق عليه ساخرًا: أجل، ستعود حقًّا، ولكن في يوم لن نكون فيه في هذه الدنيا!

كرّر في أعماقه: هذا نظام سياسي عفن ينبغي القضاء عليه. لكن، هل ينبغي اللجوء إلى القوّة على غرار ما فعلته تلك الجحافل الوحشيّة؟ آه، يا إلٰهي، يخرج الإنسان من سجن لكي يجد نفسه قبالة سجن آخر!

كلّما حدثت جريمة سياسيّة، اختلطت الحسابات كلّها. ذلك

ما تعلّمه وهو يقرأ تاريخ الأفكار السياسيّة منذ العصور القديمة إلى العصر الحاضر. الدماء التي تسيل عبثًا لا بدّ أن يكون لها تأثير في المحيط المباشر.

هناك ربّ أسرة وجد نفسه وحيدًا في هذه الدنيا، بعد أن فقد تسعة من أفرادها في ثوان معدودات. أبصر به إبراهيم في المقبرة وهو يحرّك يديه إلى أعلى وأسفل بصورة آليّة. انتظر منه أن ينطلق لسانه بالحديث لكنّ عينيه نابتا عنه. أحسّ إبراهيم بأنّ هذا الرجل بلغ الشوط الأخير من حياته، رغمًا عنه. هل في مقدور مقهور مثله أن يستعيد حبّه للحياة؟ لا يستبعد أنّه يواجه اليوم أحد أمرين اثنين: إمّا الانتحار، وإمّا التحوّل إلى العنف في أقبح صوره. ليس هناك مخرج أمام هذا الميّت الحيّ. سيظهر على الصفحة الأولى من إحدى الجرائد لكي يشرح أسباب الجريمة دون أن يشرحها. نظراته لا شبيه لها في دنيا الواقع ولا في الخيال. سيحدّق في مكان دون أن توجد علاقة بين الواقع وأعصاب عينيه. ذلك ما يخيف إبراهيم حقًّا. لقد عرف التجربة نفسها في المستشفى. جاره في الغرفة نفسها كانت له النظرات نفسها. فقد جزءًا من فكّه على إثر طلقة من بندقيّة صيد وجّهها له أحد الإرهابيّين. لم يعرف إبراهيم حينها ما إذا كان وقع الألم وراء مثل تلك النظرة الغريبة، أو العجز عن فهم الواقع المحيط به.

* * *

يومان فقط، وها هو إبراهيم في المستشفى وقد نجح في فتح باب الحديث مع جاره، ذلك الذي ينظر إلى الدنيا دون أن ينظر إليها. المسكين، وقع بين أيدي مجموعة إرهابيّة. وحين وجد فرصة للهرب، وجّه له أحدهم طلقة من بندقيّة صيد مقطوعة الماسورة. ما آلمه حقًّا هو أنّه كان يعرفهم واحدًا واحدًا في قريته التي وُلد بها. ما خطر بباله يومًا أنّهم قد يميلون ميلة إلى الجهة الأخرى. هو معلّم في مدرسة ريفيّة بسيطة، وذلك كلّ ما يعرفه عن نفسه وعن محيطه. أغلب الظنّ أنّه لن تندّ عنه نظرة مباشرة محدّدة، فلقد حلّت محلّها هذه النظرة الحائرة فيما تبقّى له من حياة. تركت الطلقة أثرها الجهنّمي في وجهه، وصار صوته أبحّ إلى الأبد.

لكن، لا بدّ من المجالدة ولا ينبغي النكوص والتراخي!

* * *

إبراهيم ينتظر نتائج التحقيق أو ما يُفترض فيه أن يكون تحقيقًا. دفتره العسكري ما زال بين أيدي المصالح الإداريّة، ينتقل من هذا إلى ذاك، وليس في مقدوره أن يستأنف عمله في الحديقة. يضحك بين الحين والآخر ويقول: الأفضل لهم أن يذهبوا رأسًا إلى مكان الجريمة، ويضعوا حدًّا لأولئك الذين ارتكبوا المجزرة عند مداخل المدينة، وفي جهات أخرى. فضّل المسؤولون العسكريّون أن يمارسوا سياسة رديئة، مع أنّ السياسة لا تدخل في نطاق اختصاصاتهم. لقد قال كلّ شيء بصوت جهير، ودوّنه في دفتره. هم يعرفونه حقّ المعرفة. يعلمون أنّه لا يحبّ المؤسّسة العسكريّة، ولا الحكّام الذين يسيّرون هذا البلد. هذا أمر معروف لدى الخاصّ والعامّ، وجرى التحقيق فيه مرّات ومرّات، ورُفع ضمن تقارير سرِّيّة إلى عدد من المسؤولين في هذا البلد.

وفي أثناء ذلك، يتعيّن على إبراهيم أن يسهر على حبّه، على ضاوية. لا ينبغي لحميد أن يقترب منها. عليه أن يمحوها محوًا من

صفحة مخّه. إنّها مسألة شرف، وحياة وموت. والده لن يتنازل بخصوص هذه المسألة حتى وإن كان يفضّل بنت رفيق عمره، صاحب القارب.

عمّ ضاوية لا خيار له في هذا الشأن، حتى وإن لم يكن على استعداد للوقوف إلى جانبه في هذا الشأن. المنطق يقضي بألّا يُلحق ضررًا ببنت أخيه، وضاوية ليست ذات طبيعة سهلة، بل إنّها تنطوي على الكثير من الشراسة في جميع الشؤون، بما فيها العاطفيّة. هي فتاة تقول ما يجول بخاطرها أمام الجميع. إبراهيم يودّ هذه المرّة أن تعمل بنفسها على إيقاف حميد عند حدّه، وبحضوره هو. هي بداية معركة غير متكافئة، لكن ينبغي خوضها أيًّا كانت النتيجة.

هذه الحديقة تكشف الآن عن وجه كالح، بعد مرور أربعة أيّام على الجريمة. وقد يعود ذلك إلى الرطوبة الشديدة التي استقرّت في أرجائها بعد الأمطار الغزيرة التي تساقطت عليها. الإدارة تستدعي إبراهيم في نهاية اليوم الرابع لكي يستأنف عمله. وبصورة تلقائيّة، يسأل المدير عن نتيجة التحقيق، فيرسم هذا بسمة ساخرة على شفتيه، هي في الحقيقة بسمة من يريد الأخذ بثأره، ويجيب: وأيّ تحقيق تعني؟ ذلك الذي يتعلّق بدفترك، أم ذلك الذي له علاقة باغتيال الضابط الكبير؟

أدرك إبراهيم عندئذ أنّ المدير وقف إلى جانبه مؤيّدًا، دون أن

يقول له ذلك صراحة. لقد ضاق هو الآخر ذرعًا بحميد وبتصرّفاته في الحديقة. قال مهمهمًا: يطلقون كلابهم في كلّ مكان، ولا يستطيعون التحكّم فيها! ثم أردف بقوله: ستبدأ غدًا بقطع شجرة الدردار التي أحرقتها الصاعقة.

* * *

لم يتسرّب أيّ خبر عن اغتيال الضابط الكبير، وذلك يعني أنّ الجريمة سياسيّة في المقام الأوّل. المسؤولون العسكريّون، وهذا أمر معروف، مشغولون بمحاربة الإرهاب، لكن، في هذه المرّة، تصفية الضابط لا علاقة لها بأيّ عمل إرهابيّ أصلاً. ليست هذه هي منهجيّة ذوي اللحى، ولا طريقتهم التكتيكيّة. الجحافل المتوحّشة من عادتها أن تترك ضحاياها في أماكن الجريمة. جثّة الضابط نُقلت، على ما يبدو، وأُلقيت في الحديقة العامّة. ولكن، لِمَ في الحديقة وليس في مكان آخر؟ عبثًا يقلّب إبراهيم المسألة، غير أنّه لا يجد لها أيّ جواب، اللهمّ سوى أنّه كان صديقًا للضابط الكبير، وأنّ جثّة هذا الأخير أُلْقِي بها في مدخل الشاليه حيث توضع أدوات التنظيف.

كيف يُتّهم بارتكاب مثل هذه الجريمة دون أن يجد نفسه في السجن؟ الإنسان لا يقتل صديقًا له في مثل ذلك النبل حتى وإن كان يكره المؤسّسة العسكريّة. حميد يدرك هذا الأمر جيّدًا، وهو

على الرّغم من ذلك يتفنّن في إلصاق الجريمة به. دفتر المذكّرات يقول الشيء الكثير عنه وعن المؤسّسة العسكريّة، وهي دلائل تهمة لا يمكن التنصّل منها. هل ينبغي الآن على إبراهيم أن يعكف على هذه المسألة ويقتلها بحثًا؟ صديقه الضابط القتيل جدير حقًّا بأن يبعث ذكراه ويتحرّك في سبيله.

أبدت أرملة الضابط، وهي تستقبل إبراهيم، نوعًا من الاستسلام. ظلّت بنتها منكمشة إلى جانبها. لم تقل الأرملة شيئًا كثيرًا لإبراهيم، وقد انتظر منها أن تبقى على صمتها ذلك. كان على علم بأنّ حميد يتبعه عن كثب، بالإضافة إلى شابّ قصير القامة من الأمن العسكري. أبصر به إبراهيم عند مدخل الڤيلّا الكبيرة، وحدّق في عينيه الخضراوين الصافيتين.

وعلى الرّغم من أنّ إبراهيم اتّخذ حذره، إلّا أنّه أعلن في قرارة نفسه أنّه لا يأبه به. دفتري موجود بين أيدي الأمن العسكري، فما الذي يريدون أكثر من ذلك؟ وفي هذه الأثناء، تواصل البواخر الرسوّ في الميناء، ناقلة حاويات لأولئك السادة في الأعالي! هي حرب عصابات فيما بينهم، وأصحاب اللحى لا علاقة لهم باغتيال صديقه الضابط الكبير.

عندما غادر ڤيلّا الأرملة، لاحظ أيضًا وجود عدد من الأشخاص الذين جاؤوا لتقديم التعازي. وحدس على الفور أنّ هناك عناصر بينهم شاركت في الجريمة. نظر صوب صفّ

المعزّين، ثم غادر، بكلّ تؤدة، أرباض الڤيلّا متبوعًا بالشابّ الذي يمثّل الأمن العسكري.

هناك طرق عديدة لكي يصير المرء صديقًا لأحد الجنرالات. والطريقة التي تعجب إبراهيم هي القول إنّ المؤسّسة العسكريّة قد تفرز بعض ذوي القلوب والنوايا الطيّبة. صديقه الضابط الكبير كان واحدًا من ذوي النوايا الصافية. لقد تحادث معه غير ما مرّة في أثناء جولات الصيد في عرض الخليج. كما أنّه تناول معه العديد من المسائل المتعلّقة بالوضع الأمني في البلاد خلال زياراته للحديقة. لذلك، من الطبيعي أن يجري الاهتمام بهذه العلاقة في الأوساط العليا. لكن، ما الذي يستطيع إبراهيم أن يقوله عن الضابط الكبير اللهمّ سوى أنّه كان يبرهن، أحيانًا، عن غضبه دون أن يقول شيئًا عن عمله، وعن وضعيّة علاقته مع محيطه المباشر؟

قال له صديقه الضابط ذات يوم، حين زاره في داره: أتعلم، يا بنيّ، هناك في اليابان الياكوزا، أي المافيا اليابانيّة التي تسيطر على كلّ شيء، لكن عندما يضيق الناس ذرعًا بتصرّفاتها، فإنّهم يقرّرون، بالاتّفاق فيما بينهم، قطع كلّ علاقة بها، أي، لا صباح الخير ولا مساء الخير، ولا اختلاف إلى مقاهيها وحاناتها ومحلّاتها التجاريّة، بل، ولا علاقة عائليّة، وهلمّ جرًّا. إنّها القطيعة النهائيّة. وإبراهيم يعلّق عليه: هي أشبه ما تكون بوضعيّتنا نحن في هذا البلد. ذلك هو نموذج السلوك الذي ينبغي انتهاجه فيما بيننا!

ومن البديهي أنّ الضابط كان يقصد محيطه المباشر من وراء كلامه ذاك. الأمور واضحة جدًّا في نظر إبراهيم. والواقع أنّه على الرّغم من اقتناعه بتآمر المحيط المباشر، فإنّ إبراهيم كان يصبّ الزيت في النار. التعليقات والأقاويل هنا وهناك في المدينة الكبيرة صارت حقائق غير قابلة للنقاش. وما انفكّ والده يلفت انتباهه إلى الخطر الذي قد يتعرّض له باجترار التعاليق نفسها. والحقيقة هي أنّه كان ميّالاً إلى تضخيم الأحداث. نار الرغبة في الثأر والانتقام هي التي تذكي أعماقه. تساءل أمام دهشة صديقه الضابط: ولِمَ الليونة حيال أولئك الوحوش؟

* * *

استأنف إبراهيم عمله في الحديقة العامّة، ولكن بالكثير من المرارة. لن يجيء الضابط الكبير لاستنشاق الهواء في الممرّات مع بنته وولده. قال إنّ دماء الضابط لن تتجمّد أبدًا، لا هنا ولا هناك! جسده سيتصايح كلّ عام في المكان الذي وقع فيه قتيلاً. عالم الرياضيّات الموجود في أعماقه، ذلك الذي لا يؤمن إلّا بما يمكن تمحيصه وحسابه، مقتنع بهذه الحقيقة! ربّما كان ذلك تقليدًا شعبيًّا، لكنّه يراه رائعًا ويتناسب مع كلّ ما هو منطقي. وتذكّر جيّدًا اغتيال ذلك الإسكافي الإسباني من قبل رفيقيه في حيّه بالذات. أمضى ليالي وليالي ساهرًا ينتظر انطلاق الصرخة التي يمكن أن يطلقها جسد ذلك المسكين، بحلول شهر أوت من ذلك العام البعيد. لم يسمع شيئًا من هذا القبيل، وما أسرع ما تحوّلت الأسطورة في أعماقه إلى ما يشبه روحًا ناقمة، تسري في نفسه سريانًا، وكذلك في نفوس رفاقه من أطفال الحيّ. هل سينتهي الأمر بروح الضابط الكبير إلى إطلاق صرخة الانتقام خلال السنة المقبلة؟

كفّ حميد فجأة عن توجيه الحديث إليه. وفهم إبراهيم من خلال هذا السلوك الجديد حياله أنّ هناك تغيّرًا تكتيكيًّا في الموقف. بل إنّه فكّر في أن يستفسر منه عمّا بلغه مع المحقّقين الآخرين بخصوص دفتر مذكّراته. نصحه مدير الحديقة بألّا يحاول استفزاز غريمه. قال له دفعة واحدة: السادة في الأوساط العليا قادرون على كلّ شيء، بما في ذلك تنفيذ حكم الموت في شابّ أعرج مثلك!

* * *

أمضى إبراهيم كامل يومه في تنظيف نصف مساحة الحديقة. لم يقترب من تمثال حمّال الأرصفة، ولا من تمثال أموات الحرب العالميّة الأولى. طيور البحر صالت وجالت على هواها في هذين المكانين، واختلطت فيهما رائحة العفونة بالرطوبة. ولم يتجرّأ حميد على أن يصدر إليه أمرًا بما ينبغي القيام به، بل، ولعلّه لم يشعر بالحاجة إلى استفزازه. وما كان من إبراهيم سوى أن فرك يديه جذلاً وقال: هذا شيء حسن. يبدو أنّ الأمور بدأت تتغيّر في هذه الحديقة.

حين بلغ شجرة الدردار المصعوقة، دار حولها مرّتين، مستذكرًا أيّام طفولته الأولى. وتساءل ما إذا كانت ستُقتلع حقًّا من جذورها لكي تفسح المكان لمتحف الرعب الذي أوحى حميد بإقامته. قال في نفسه: هذه الشجرة شاهدة على اغتيال صديقي الضابط الكبير، ولعلّ الأسماك الحمراء نفسها تعرف الكثير من التفاصيل عن الجريمة. كيف يمكن السماح بارتكاب مثل هذه

البشاعة؟ لقد مات جزء من شجرة الدردار، ومع ذلك يمكن إنقاذ بقاياها وبعث الحياة فيها. وفي ذروة استنكاره لما يجري في الحديقة من مهازل، عبّر إبراهيم للمدير عن استعداده لبذل كلّ ما في وسعه، من أجل إعادة الحياة لشجرة الدردار. وضرب يده على مكتبه مردّدًا: هذه الشجرة عمرها مائة عام! المدير مع رأيه هذا، لكنّه لا يستطيع ولا يتجرّأ على القيام بشيء. كلّ حركة من حركاته محسوبة، ومسجّلة لدى حميد. وهو قد يفقد منصبه في أيّة لحظة ويجد نفسه هو الآخر في حالة بطالة. طلب منه إبراهيم بنبرة قويّة: ما الذي تحتاج إليه لكي تدافع عن نفسك؟

* * *

جاء الجنرال، عمّ ضاوية، إلى الحديقة لمقابلة إبراهيم. وجده داخل الشاليه، يحتسي شايًا ويدلّك ساقه اليسرى. وفهم إبراهيم على التوّ أنّ هناك أمرًا ما وراء هذه الزيارة المفاجئة. هي أوّل مرّة يتنقّل فيها الجنرال بمفرده لمقابلته. في العادة، يجيء مصحوبًا ببنت أخيه. ما إن أبصر حميد بالجنرال يدخل الشاليه مصحوبًا بعدد من حرّاسه، حتى حاول إقحام نفسه، غير أنّ الحرّاس أنفسهم سارعوا إلى صرفه، تلبية لإشارة آمرة من الجنرال. البهدلة لم تغيّر شيئًا منه، لكنّه ازداد ضغينة على ضغينة. أدرك أنّ هناك أمورًا بدأت تحدث في هذه الحديقة، دون أن يقوى على الاطّلاع عليها. وتأسّف لكونه لم يخاطب إبراهيم منذ أن استأنف عمله بالحديقة. هو في هذا المكان في مهمّة محدّدة. الحديقة هي مكان جميع المؤامرات والمناورات، ولذلك، لا ينبغي أن يفوته شيء ممّا يجري فيها.

أصبح وجهه بلون الحنطة الرطبة لبضع دقائق بسبب خيبته

وحقده في الوقت نفسه. وضرب أخماسًا في أسداس وهو يردّد: لا بدّ من التفطّن والبقاء بالمرصاد. لا بدّ من الارتقاء في الرتبة دون أن تكون لي علاقة بهذه الثكنة أو تلك! إبراهيم هذا ينغّص عيشي دون أن يبذل جهدًا كبيرًا. ها هو الجنرال، عمّ ضاوية، يقحم أنفه في أمور قد لا يفهم منها شيئًا. ينبغي التصدّي لمشاريع إبراهيم. إنّه يعلم جيّدًا أنّ الجنرال لن يتدخّل في مثل هذه الأمور التافهة. ولكن، لِمَ، تراه، جاء إلى الحديقة؟ ألا يكون هناك أمر خطير يشغل باله؟ لا شكّ في أنّ للفتاة دخلاً في هذه الزيارة. لن يتأخّر في الكشف عن خباياها بمساعدة من مدير الحديقة نفسه. وما أسرع ما أمره بأن يتحايل على إبراهيم ويطلب منه ملخّصًا عن المقابلة مع الجنرال. غير أنّ إبراهيم وجد الفرصة سانحة فرسم ابتسامة سخرية على شفتيه، على غرار ما يفعله إنسان مسحوق حقّق لتوّه نصرًا غير منتظر على عدوّ خطير. الحقيقة هي أنّ الجنرال سأله ما إذا كان جادًّا في علاقته ببنت أخيه. ردّ عليه بالإيجاب دون تردّد وكأنّه يوجّه ضربة قاضية لخصمه حميد. حينها قال الجنرال إنّه على استعداد لكي يساعده في الحصول على عمل أفضل، وانتشاله من أيدي المحقّقين الذين ما زالوا عاكفين على تقليب دفتر مذكّراته. وما كانت الملاحظة الأخيرة لتروق إبراهيم أصلاً.

أحسّ حميد بالغبن. ما كان يقدر على شيء للوقوف في وجه الحبّ المتنامي بين إبراهيم وضاوية. حظوظه في انتزاع رتبة عسكريّة أعلى، وفي وضع اليد على ضاوية، تافهة حقًّا. ولذلك، سارع إلى اتّخاذ قرار بألّا يضرّ بهذه العلاقة التي رآها غير متكافئة

وغير طبيعيّة. وهل في مقدوره أن يواجه الجنرال، وهو المخبر البسيط الذي يسعى إلى بلوغ ما يريده بجميع الوسائل؟

الأعرج في مواجهة حميد العسكري الرياضي! ردّدها إبراهيم وهو يضحك. شعر بمرور الدفقة الأولى من نشوة النصر. سترقص ضاوية طربًا حين تعلم بهذه النتيجة الأولى.

لم يكتف الجنرال بهذه المقابلة البسيطة، بل اصطحب إبراهيم إلى مكان الجسر الصخري الصغير دون أن يكشف له شيئًا من مشروعه. غير أنّ إبراهيم تعمّد استثارته، ملاحظًا بأنّ الجسر يمكن أن يُدرج ضمن الآثار التاريخيّة المصنّفة. ثم انطلق في حديث طويل عريض عن حياته العسكريّة. كيف ذهب لتأدية الخدمة الوطنيّة، وكيف أُصيب في ساقه اليسرى. ثم قال في اندفاعته إنّ الغلطة تقع على العساكر وعلى العسكراتيّة بصورة عامّة.

وفي لحظة من اللحظات، لم يتردّد في أن يصيح في وجهه: ها هي العسكريّة تبادر الآن إلى الاستيلاء على جسور ومقالع حجريّة بأكملها! شعر الجنرال وكأنّ فمه أُلقم حجرًا على طريقة المافيا الإيطاليّة، فلم يردّ عليه. بدا في أشدّ غضبه وهو يسوق السيّارة. انزعج إبراهيم أيّما انزعاج من الحارسين الشخصيّين للجنرال. كلّ شيء، إلّا هذه الحراسة المقرّبة المشدّدة التي تجعل منه نغمةً نشازًا في أوركسترا الشعب الواسعة!

هكذا يشغل الضبّاط السامون أنفسهم بشراء الجسور والمقالع الحجريّة! هل سينتهي بهم الأمر إلى وضع أياديهم على آبار

البترول؟ شعر إبراهيم بفرحة غامرة لم يعرف تفسيرها. تمنّى حينئذ أن يكتب كلمات ويضع لها الموسيقى. البلد لا يواجه فضيحته الأولى! ذلكم هو الجواب الذي قدّمه وزير لفتى احتُجزت ڤيلّته. السرقة، ثم السرقة، على مرأى ومسمع من العالم أجمع!

قالت له ضاوية حين قابلته: لا دخل لعمّي في حياتي الخاصّة! لو كان له مثل هذا الأمر لعمد إلى تزويجي من أحد الضبّاط. وحين خلا إلى نفسه شعر أنّه تحت رحمة الجنرال، وليس العكس. ما كان في حاجة إلى مساعدة منه. لقد دوّن كلّ شيء في دفتره، بل إنّه سيدعو المحقّقين ذات يوم إلى قراءة بقيّة مذكّراته.

* * *

ولأوّل مرّة، شعر مدير الحديقة بالراحة. وما كان بالفعل في حاجة إلى أن يقدّم أيّ حساب لحميد، بعد أن رآه يتلقّى هزيمته الأولى. وازداد احتكاكًا بإبراهيم، فنصحه باستخدام الحيلة، بدلاً من الإفصاح عن نواياه دفعة واحدة. هما يواجهان عدوًّا واحدًا، مع فارق كبير، وهو أنّ إبراهيم يستطيع أن يتلقّى الدعم من الجنرال في أيّة لحظة. لم يوافقه إبراهيم، إذ ليس من طبيعته أن يطلب العون من عسكري لا يكاد يعرفه، وهو الذي يمقت الهيئة العسكريّة. لا يمكن أن يحني رأسه، كلّا، ولن يسمح بترك الساحة أمام حميد لكي يتحرّك فيها على هواه!

إبراهيم يشعر الآن أنّ الرقابة ازدادت عليه. لم يراوده مثل هذا الشعور، منذ خروجه من المستشفى وتسريحه من الخدمة العسكريّة. جاء الأعوان سرًّا إلى حيّه وحقّقوا بشأنه. قالت جارة لأحد المحقّقين دون أيّ مقدّمات: ما الذي تريدونه منه بعد كلّ الذي حدث؟ هل تريدون أن تدفعوا به إلى الموت؟

استعرض إبراهيم مشهد دفن صديقه الضابط الكبير. تعجّب

من نفسه كيف استطاع أن يدخل المقبرة، على الرّغم من الطوق الأمني الذي ضُرب حواليها. خانته ساقه اليسرى غير ما مرّة. غير أنّه تمكّن من أن يبصر برئيس الدولة عن بعد، وهو يلقي بحفنة تراب داخل قبر صديقه الجنرال. بل إنّه سمع أحد الحرّاس يقول بصوت مهموس: ما دام الأمر على هذه الحال، فليتّخذ كلّ واحد منّا حذره! رأى إبراهيم كلّ شيء، ودوّن كلّ ما التقطته أذناه. وحزّ في نفسه أن يوجد، بالرّغم منه، في قلب هذه المافيا الملعونة التي تسيّر شؤون البلاد. ولذلك، لم يشعر بأيّ دهشة عندما علم من جارته أنّ أناسًا مشبوهين جاؤوا لكي يحقّقوا بشأنه في الحيّ.

هل يتعيّن عليه أن يختبئ الآن؟ أجاب والده بصورة قاطعة: كلّا وألف كلّا! المدّة التي قضاها في الخدمة العسكريّة علّمته أنّ المحقّقين يعرفون مختلف المقالب التي يتعيّن عليهم استخدامها، بل من المسموح لهم أداء عملهم كيفما ارتأوا ذلك. لقد تمّ تغييب أناس لأنّهم انتقدوا النظام القائم. وأُبعد آخرون نحو الخارج. أمّا هو فقد يُزجّ به في السجن، وقد يُطرد إلى الخارج، لكن، ليس قبل أن يقول الكلمة الأخيرة.

ولأوّل مرّة، أبصر بضاوية وقد تملّكها القلق بشأنه. لعلّها تبادلت بعض الكلمات القاسية مع عمّها الجنرال. لا مجال للعودة إلى الوراء مع النظام القائم. عمّها هو أحد بيادق النظام، وعليه، ينبغي معرفة اللفّ والدوران معه. قال لضاوية بنبرة من يريد أن ينطح صخرة اعترضت سبيله: هذا النظام السياسي لا يمكن أن يكون منيعًا إلى آخر الزمن، أليس كذلك؟

* * *

وحدث ما كان منتظرًا منذ أيّام. تسلّم إبراهيم من إدارة الحديقة وثيقة استدعاء تحمل اسمه، وعليها ختم صغير يحمل الكتابة التالية: مصلحة الأمن بوزارة الدفاع الوطني. ها هم السادة الكبراء يستدعونه، وكأنّه كيس يلقون بداخله ما يقلق بالهم. هل يستجيب أم لا؟ وجّه إليه مدير الحديقة نظرة إشفاق ولسان حاله يقول: سيعصرونك مثل حبّة ليمون. أعوان المدير أنفسهم لم يعلموا بحقيقة الأمر. كانوا يعرفون أنّ المؤسّسة العسكريّة تنظر إليه نظرة سيّئة، ولكن، ليس إلى حدّ استدعائه للتحقيق معه. ولو أنّ أحدًا منهم سبق له أن اطّلع على دفتر مذكّراته، لنصحه بالهرب وبالاختفاء.

في الدار، طلب منه والده أن يكون مهذّبًا ملاينًا، عندما يجد نفسه وجهًا لوجه مع أولئك الزبانية. قال له إنّ الوضع في البلاد يُرثى له، ولذلك لا ينبغي أن يعرّض الإنسان ظهره لضربات السياط. قلّب الفكرة في دماغه طيلة جزء من الليل. وتناول من

جديد ورقة الاستدعاء، محاولاً أن يفكّ رموز جملها: الحضور على الساعة العاشرة والنصف بالضبط. ينبغي أن تكون مزوّدًا ببطاقة التصويت. وجد الأمر عاديًّا، على الرّغم من أنّه أغرق في الضحك بخصوص المقطع الثاني: ولِمَ ورقة التصويت؟ هل هناك سلطة شرعيّة في هذا البلد؟ إنّه لا يمتلك ورقة التصويت. سبق له أن صوّت مرّة واحدة في حياته فقط، وكان ذلك داخل الثكنة. بل إنّ هناك من صوّت نيابة عنه. أين يضع اليد على مثل هذه الورقة؟

وتقدّم، وهو يُعيد قراءة ورقة الاستدعاء: ينبغي حمل ربطة العنق. هذه أطرف الأمور كلّها! ينبغي أن يكون أنيق الهندام في أثناء الاستنطاق، يا لهذه المهزلة! لن يحمل ربطة عنق، وسيكون الطرد حينئذ نتيجة منطقيّة.

ها هم ينقّبون في تضاعيف مخّه. يتعيّن عليه أن يحسن المراوغة. أحد أصدقائه مرّ من الطريق نفسه. استُدعي بالطريقة نفسها لأنّه رفض عرض عمل بعد أن عرف في اللحظة الأخيرة أنّ مصالح الأمن وراءه. ولمّا كان واقعًا تحت وطأة دواليب لا ترحم، فإنّه احتُجز طيلة أسبوعين في زنزانة صغيرة، ولم يخرج منها إلّا مُصابًا بمرض السكّر. لعلّهم حقنوه بجرثومة من الجراثيم. من فتى نابه في علوم الرياضيّات، ورياضي متين البنيان، إلى إنسان متداعي الجسد، بفعل الصدمة النفسيّة. هل سيعرف المصير نفسه هو الآخر؟ كلّ شيء ممكن طالما أنّهم وجّهوا الدعوة لإنسان عجوز لكي ينقذ البلاد، مثل محمّد بوضياف، ثم قتلوه على المباشر أمام

مرأى ومسمع من العالم أجمع. هو في نظرهم عبارة عن ساندويتش. عليه أن يحذر ويصمت. الشيء المؤكّد هو أنّه لن يحمل ربطة العنق لكي يرضيهم. ليس ذاهبًا إلى حفل، بل إلى جلسة أو عدّة جلسات من الاستنطاق. العسكراتيّة يعرف جانبًا منها.

* * *

في الصباح الباكر، طرقت ضاوية باب داره. اطّلعت على الأمر عن طريق عمّها الجنرال. قال إبراهيم حينئذ: يمكن النيل من النظام الدفاعي لدى أولئك السادة في أيّة لحظة. مبدئيًّا، ضاوية ما كان لها أن تعرف ما يؤول إليه أمره. وليس للجنرال أن يخبرها، لكن، ما دامت الدولة الحقيقيّة التي يُفترض فيها تسيير أمور البلاد غير موجودة، فإنّه من الطبيعي أن تطفو على السطح نقائص هذا النظام وعيوبه.

أعلمته ضاوية أنّ عمّها مستعدّ لتقديم يد العون له. وما أسرع ما أجاب بهزّة من رأسه، على سبيل النفي. ما كانت الفتاة تأخذ الأمور على محمل الجدّ في بعض الأحيان. قرأت دفتر مذكّراته، ولم تجد فيه شيئًا كبيرًا. كانت متعوّدة على الأفكار التي عالجها إبراهيم في تلك المذكّرات. ليس هناك فيها أمر خارق في نظرها. المؤسّسة العسكريّة في هذا البلد مكروهة، والكلّ يعلم ذلك، ويردّده كيفما أراد، وفي أيّ مكان. الخبزة مقسومة بين مجموعة

صغيرة من الضبّاط السامين، وهذا أمر يتحدّث عنه الناس كلّهم أيضًا. الشيء الوحيد الذي لم تستسغه ضاوية هو أنّ إبراهيم دَوّن كلّ شيء كتابيًّا. الكتابة تبقى، وهي تزعج المسؤولين في الأماكن العليا. الشيء الثاني هو أنّ إبراهيم كان صديقًا للضابط القتيل. وذلك محلّ اللوم في المقام الأوّل، لأنّ ذلك قد يعني أنّه على علم بالجريمة، وليس من المستبعد أن يُسكتوه إلى الأبد.

* * *

شعر إبراهيم بما يشبه كرة تستقرّ في أعلى بطنه. قال إنّه القلق. أراد والده أن يصحبه، لكنّه رفض رفضًا قاطعًا.

عند مدخل وزارة الدفاع الوطني استقبله شخص يرتدي بذلة زرقاء أنيقة. لم يعجبه هذا اللقاء الأوّل. وما أسرع ما حاول ذلك الشخص أن يؤثّر عليه حين سأله: أين هو الزيّ المطلوب؟ أين بطاقة التصويت؟ ردّ عليه إبراهيم بكلّ برودة: أنا لا أملك ربطة عنق، ولا بطاقة تصويت! أراد الشخص أن يواصل بالاندفاع نفسه، لكن سرعان ما جاءه الأمر بالتوجّه مع إبراهيم إلى مكتب مجاور للمدخل.

وما كان أشدّ عجبه عندما وجد نفسه في مكتب كبير، جيّد الإنارة، صحبة عسكريّين اثنين جالسين وراء طاولة مستطيلة. وقع نظره فجأة على دفتر يوميّاته. كان مطروحًا قبالة أحد العسكريّين. حدس إبراهيم أنّهما دقّقا النظر في الدفتر مرّات ومرّات. وتعجّب حين أبصر بغريمه حميد يدخل المكتب من باب داخلي. ما الذي

يفعله ها هنا؟ ألم يكفه أنّه وراء شقائه ومعاناته في أثناء الخدمة العسكريّة، وفي الحديقة العامّة نفسها؟ حاول حميد أن يخيفه موجّهًا إليه نظرة متعالية. لكن إبراهيم نظر إلى جهة أخرى، متّخذًا مكانه على أحد المقاعد الخشبيّة. انتهره أحد العسكريّين: من رخّص لك بالجلوس؟ نظر إبراهيم إلى العسكريّين نظرة متفحّصة وهو يقول بين أسنانه: وضعيّتي الصحّيّة هي التي تسمح لي بالجلوس. ثم إنّني لست عسكريًّا، ولا أريد أن أتلقّى أمرًا من أحد. وقف أحد العسكريّين بسرعة وصفعه. حينئذ قال إبراهيم: ليس لديّ ما أضيّعه. لقد سبق لكم أن أخذتم منّي حياتي!

تحمّس حميد أكثر من ذي قبل، فقال مخاطبًا إبراهيم: أمسك لسانك، وإلّا! وفي هذه اللحظة بالذات، شعر إبراهيم بنفحة من قوّة متزايدة تسري في أعماقه. هو قادر الآن على مواجهة الموت. نظر إلى حميد من علٍ مرسلاً ضحكة ساخرة، وقال بنبرة احتقار: أنت، أعرفك، لست تساوي شيئًا، ولن تكون شخصًا ذا أهمّيّة أبدًا. وأدرك العسكريّان حينها أنّهما حيال إنسان متعنّت! ليس هناك ما يدعو إلى التحايل لاستنطاقه. لا بدّ من استخدام القوّة. تبادلا نظرات متواطئة فيما بينهما، ثم أصدر أحدهما أمرًا لحميد بنقله إلى مكان آخر.

* * *

ولكن، ما هو هذا المكان الآخر؟

اقتيد إبراهيم نحو أعالي المدينة الكبيرة. ومن حسن الحظّ، لم تكن عيناه معصوبتين على جاري العادة مع بعض المتّهمين الذين يجري تعذيبهم من قبل بعض الزبانيّة. عند مدخل البناية الصغيرة الواطئة، بلغ سمعَه أنينُ بعض المعذّبين. ثم إنّه أبصر في الرواق المؤدّي إلى الطابق الأوّل شابًّا تخضّب وجهه بالدم بعد أن مرّ بجلسة من جلسات التعذيب. تردّد إبراهيم في وقفته، ثم إنّه دُفع دفعًا نحو أحد المكاتب. في هذه المرّة، استقبله حميد بسحنة ساخرة، وبطريقة من يريد الإسراع في الانتقام.

يروقك أن تسيء إلى مؤسّستنا العتيدة، أليس كذلك؟ ندّ هذا التساؤل الخبيث عن إنسان يبلغ حوالى الأربعين عامًا. وجه شاحب، هو في الحقيقة وجه إنسان، لا يشعر بأنّه في توازن تامّ مع نفسه. ردّد الملاحظة نفسها ولم يأته أيّ ردّ من إبراهيم. ما كان دفتر المذكّرات قبالته، لكن، كانت هناك جذاذتان عليهما بعض

التعليقات بقلم الرصاص. توقّع إبراهيم أن يجيء أحد ويهزّه هزًّا، لكن، لم يحدث شيء من هذا القبيل. أراد عندئذ أن ينتقل إلى موقع الدفاع فسأل: ما الذي تريدونه منّي؟

لم يردّ عليه صاحب الأربعين عامًا. واصلت يمناه تقليب الجذاذتين. بدا حائرًا وغير مستعدّ لاستنطاق إبراهيم. وفي الظاهر، ما كان قد اطّلع على ما يتضمّنه دفتر المذكّرات. قام إبراهيم من كرسيّه كمن ربح الشوط الأوّل في هذه المقابلة الغريبة. أمره الرجل بمعاودة الجلوس. وحاول إبراهيم مرّة ثانية إقناعه بأنّه يستحيل عليه أن يجلس على مقعد أكثر من دقيقة واحدة. ساقه اليسرى تؤلمه في كلّ مرّة يحاول طيّها أو سحبها إليه.

أعاد طرح السؤال على نفسه: ولكن، ما الذي يريدونه منّي، يا تُرى؟ تكهّن الأربعيني بما يجول بخلد إبراهيم، فقام، وجاء ليجلس بالقرب منه. أسرّ إليه في أذنه: كيف يتنكّر ابن العسكريّة لوالدته؟ أرسل إبراهيم ضحكة ساخرة وهو يقول: لقد توفّيت والدتي. وشرح له الرجل أنّ العسكريّة هي والدته الحقيقيّة. وحدث صمت طويل بين الاثنين. ثم إنّ الرجل الأربعيني حوّل دفّة الحديث. خُيّل إلى إبراهيم في هذه اللحظة أنّه في عرض خليج الجزائر، وقد هبّت عليه ريح بافانيا مفاجئة، مصفرّة، متلاعبة بقاربه. قال في نفسه إنّ رجال الأمن العسكريّ ليس لهم من عمل آخر سوى هذا العمل الخبيث! سأله الأربعيني دفعة واحدة: حدّثني عن الضابط الكبير الذي اغتيل في الحديقة العامّة! كنت على علاقة

جيّدة به، أليس كذلك؟ أدرك إبراهيم الغاية من سؤاله ذاك. تهجّمه على المؤسّسة العسكريّة ليس هو موضوع الاستنطاق، وإنّما هو الضابط الكبير، ذلك الرجل المهذّب الذي اغتيل لأنّه رفض، فيما أُشيع عنه، أن ترسو السفن في قلب الليل، لكي يتصرّف اللصوص على هواهم، ودون قيد أو ضابط!

قام إبراهيم مرّة ثانية، ولم يوجّه له الرجل الأربعيني أيّ أمر بمعاودة الجلوس. ثم حدّق فيه إبراهيم وهو يعود إلى تقليب الجذاذتين قبالته. ومرّت بعض الثواني قبل أن ينهض الأربعيني من مقعده ليدور دورة قصيرة حول المكتب ويقول بنبرة هادئة جدًّا: لقد كنت صديقًا للضابط الكبير، وأنت لا تنكر ذلك!

قال إبراهيم بصوت متّزن: أنا لا أعرف شيئًا عن اغتيال صديقي الضابط، وأشكّك في هويّة مرتكبي الجريمة! وفي هذه اللحظة، ضرب الأربعيني المكتب بيده: أنت تتّهم جزءًا من السلطة؟ ولم يراقب إبراهيم نفسه، فأجاب بإلحاح: أجل، أتّهم جزءًا من السلطة التي تسيّر شؤون البلاد. وعلى إثر ذلك، جاءت يد الأربعيني لتقع على خدّ إبراهيم ففقد توازنه وسقط أرضًا.

وتوقّف الاستنطاق عند هذا الحدّ. واقتيد إبراهيم بعدها نحو زنزانة ضيّقة جدًّا تحت الأرض.

* * *

فـقَدَ شيئًا ما من توازنه النفسي. الزنزانة لا تزيد عن مترين طولاً وعرضًا. انطرحت في وسطها إسفنجة تعافها حتى الكلاب. رائحة بول قديم تنبعث منها. صرف بأسنانه وقال: يستحيل أن أتمدّد على هذه الإسفنجة، حتى وإن عجزت عن الوقوف. هذه هي المذلّة وقد تجسّدت في شكل إسفنجة تناوبت عليها أجساد المعذّبين. ترى، من هو الشخص الذي عذّبوه هنا قبله؟ لعلّه تبوّل من الخوف والألم، أو لعلّه لم يتمكّن من إمساك بوله، لأنّه لا يوجد مرحاض بداخل الزنزانة. مصباح صغير أصفر مغروز في السقف يستطيع أن يمدّ يديه إليه كيفما شاء. تصايح: الملاعين، إنّهم يعلمون جيّدًا أنّني لا أستطيع الوقوف وقتًا طويلاً، فلِمَ يا ترى، يتفنّنون في تعذيبي؟ لم ينته من إفراغ ما في صدره حتى كان أحد العسكريّين يقف قبالته كأنّما بفعل السحر. كان مصحوبًا بعسكريّ آخر، ويحمل الدفتر المشبوه تحت إبطه. أظلمت الدنيا في عيني إبراهيم، وكأنّ موجة هائلة كوّرته على مدى عشرات الأمتار. الحزن العميق الذي سيطر عليه في تلك

الثواني لم يعرف له نظيرًا، منذ أن جاء إلى هذه الدنيا، ولا حتى عندما فقد رفيقه ذا العينين الزرقاوين الصافيتين. هو الآن تحت رحمة هذا العسكري الذي لا وجه له، بحكم العتمة التي يتسربل بها قبالة الزنزانة. لم يبصر إبراهيم من وجهه إلّا ما يشبه بسمة سخرية من خلال الستارة الحديديّة الموجودة في الجانب العلوي من الزنزانة. وفي لحظة خاطفة قال إبراهيم: هوذا الشرّ عينه وقد تجسّد أمامي! اقترب العسكري الثاني بدوره من الستارة الحديديّة. عيناه بدون أهداب، وقد احمرّتا عند الأطراف. هو أشبه بإنسان تنهشه حمّى المستنقعات. كان مرعبًا حقًّا. لم يتحرّك إبراهيم، بل راح بدوره يلقي نظرة استنطاق على العسكريّين معًا. لم هذا النزوع كلّه إلى ارتكاب الشرّ؟ هذان الشخصان يمثّلان نظامًا سياسيًّا يتهاوى شيئًا فشيئًا.

سأله العسكري الأوّل، دون سابق مقدّمات: قل ما تعرفه عن صديقك الضابط الكبير!

دار إبراهيم دورة صغيرة حول نفسه داخل الزنزانة. نفش شعر رأسه عدّة مرّات، دون أن يتوصّل إلى فهم سبب الأهمّيّة التي تحظى بها علاقته بالضابط القتيل. هو نفسه ما كان يعلم الشيء الكثير عن تلك العلاقة. هي صداقة وكفى بالله وكيلاً! قرّر أن يُجيب دون أن يُطيل التفكير: كلّ ما أعرفه سجّلته في دفتر يوميّاتي. هذا الدفتر تداوله كبار المسؤولين في الدوائر العليا، وقرأوه بإمعان، أليس كذلك؟

نظر إليه العسكري الأوّل نظرة احتقار. عندئذ حلّ العسكري الثاني محلّه: من قتل الضابط الكبير؟ سؤال غريب حقًّا! وطلب منه أيضًا: أتريد أن نُعيد صياغة هذا السؤال بطريقة أخرى؟ سمّر إبراهيم عينيه فيه هذه المرّة، بطريقة متعالية وأجابه: السؤال تعرفونه جيّدًا، والجواب تعرفونه بصورة أفضل منّي أيضًا! حاولوا أن تكونوا منطقيّين مع أنفسكم، وسوف تخرجون حينها بكلّ تأكيد من المأزق الذي تتخبّطون فيه. وضع العسكري الثاني يمناه على الستارة الحديديّة وكأنّه يريد أن يصفعه، ثم ازداد اقترابًا منها، وقال: اسمع، من الأفضل لك أن تقول لنا الحقيقة، كلّ الحقيقة!

حدس إبراهيم حينئذ أنّ العسكريّين قبالته ما كانا ينفخان إلّا في الريح. طريقتهما في طرح الأسئلة التافهة تكشف أنّهما خارج اللعبة. يحاولان فقط أن يروقا في أنظار المسؤولين عنهما. قال العسكري الأوّل بنبرة احتقار وتعالٍ، على سبيل استثارة حفيظة إبراهيم: سأطرح السؤال على صديقتك ضاوية، فهي تعرف كيف تجيبني بصورة أفضل. دار إبراهيم مرّة أخرى حول نفسه، وقال بنبرة أقلّ سخرية: حاول، جرّب! عمّها الجنرال سيجعلك تشرب بولك!

من ذا الذي يجيء على ذكر اسمه لو أنّه عُذّب أو اغتيل حقًّا؟ طرح إبراهيم السؤال على نفسه في لحظة خاطفة وهو يرى مقدار الحقد الذي تجمّع على وجه العسكري الأوّل. شعر هذا الأخير فجأة أنّه أعزل أمام ما يشبه صخرة صمّاء. ولم يعلم إبراهيم نفسه

مدى التأثير الذي أحدثه في نفس خصمه بإجاباته القاطعة، ولا في نفس العسكري الثاني الذي يصحبه.

بلغت إبراهيم صرخات ألم، أعقبها أنين، لكنّه لم يتحرّك. قال له العسكري الأوّل عندئذ، على سبيل التخفيف من ثقل الصدمة: إنّهم إرهابيّون، قتلة، لا يريدون الاعتراف!

يا لهذه الدولة التي تحكمنا! ردّدها إبراهيم مرّتين. حدّق في العسكري الأوّل، ثم قال بعنف: أين الفرق بينكم وبين زبانية الاستعمار؟ العسكري الثاني هو الذي تدخّل هذه المرّة: ما الذي يجعلك تصفنا بالزبانية؟ لم يرد إبراهيم الدخول في جدال معه. رأيه في النظام السياسي واضح معروف، ولقد تعذّب منه كثيرًا. عالم رياضيّات قبالة زبانية جهلة!

غاب العسكريّان بضع دقائق، ثم عادا وهما أشدّ ما يكونان عزمًا. أمر العسكري الأوّل إبراهيم بنزع ثيابه كلّها دون أن يدخل الزنزانة، لكنّه رفض أن يذعن له. عندئذ دُعي عملاقان اثنان إلى الدخول إلى الزنزانة الضيّقة لتعريته بالقوّة.

وجد إبراهيم نفسه عاريًا مثل دودة. شعر حينها بعينيه تحرقانه من الألم. كلّا، ما كان خجلاً من عريه، لكن، من عري جلّاديه. اقترب العسكري الأوّل من الستارة الحديديّة وعيناه تفيضان حقدًا أكثر من ذي قبل، وقال بنبرة المنتصر: ستفكّر! ستكشف عن كلّ ما تعرفه عن صديقك الضابط الكبير. وانصرف الجميع عنه.

* * *

لم يقدّم له أيّ طعام. قال لنفسه إنّ ذلك أمر متوقّع منهم. استذكر يوغرطة وهو يموت جوعًا في الزنزانات الرومانيّة. ما الفرق بين الزبانية في كلّ عصر ومصر؟ هو داخل هذا الصندوق الذي يُسمّى زنزانة، ثيابه مطروحة كيفما اتّفق أمام باب المدخل. في إمكان أيّ شخص أن يدوسها. وفي لحظة من اللحظات، انفجر ضحكًا وهو يقول: هل هناك دولة فعلاً في هذا البلد؟ ما كان قادرًا على أن يُقيم علاقة منطقيّة بين عريه التعسّفي وسلوك جلّاديه. صرخات الألم تنبعث بين الحين والآخر من مكان ما في البناية العتيدة، فتبعثه على التحسّر، لكنّها تجعله على وفاق مع نفسه. فكّر في صياغة معادلة تلخّص وضعه: عسكري سابق مقهور، في داخله عالم رياضيّات يشغل منصب عمل ما كان ليقبله أيّ شخص آخر في جهة أخرى! تصايح أيضًا: كلوها، هذه الجزائر، ابتلعوها إن شئتم!

عند العصر، شعر بضرورة التبوّل. ضرب الستارة الحديديّة

بجمع يده. لم يتلقّ أيّ ردّ من الجانب الآخر. آلمته ساقه اليسرى. لم يسبق له أن قضى مثل هذا العدد من الساعات واقفًا منذ أن تعرّض للحادثة. جلس مكرهًا على المطرح الإسفنجي، لكنّه عاود الوقوف بعد بضع ثوان. أزعجته رائحة البول التي انبعثت من الشخص الذي تعذّب قبله في المكان نفسه. ثم إنّه شعر ببعض التقرّح في جانب من فخذيه من أثر الاحتكاك بالمطرح. في مقدور كلب أجرب أن يحظى بتقدير أفضل منّي، قالها والدموع تستقرّ على أطراف عينيه!

صاح مرّة ثانية، ثم ثالثة، لكن عبثًا. تحرّرت مثانته بمفردها. تشرّب المطرح الإسفنجي بوله. لا حاجة به الآن إلى أن يستلقي عليه، اللهمّ إلّا إذا أُغمي عليه. قال في نفسه: يبدو أنّهم يريدون النيل منّي بجميع الطرق! ما الذي أقوله لهم على وجه التحديد؟ هل أقول لهم إنّكم قتلتم صديقي، الضابط الكبير؟ أنا لا أعرف شيئًا آخر.

يعذّبونه دونما سبب ظاهر! في قلب الليل، وهو يتمرّغ على طرف المطرح الإسفنجي، بين اليقظة والنوم، جاؤوا ليقلقوه مرّة ثانية. العسكري الأوّل والعسكري الثاني، مع عدد من الحرّاس الآخرين. قوّس ظهره عمدًا لكي يريح جسده كلّه على ركبتيه، وضغط رأسه على حديد الزنزانة. أجل، الزنزانة من حديد. لكأنّما صُنعت خصّيصًا لقرد كبير حتى يتمتّع الناس برؤيته. ظلّ مصباحها منارًا عمدًا من أجل إثارة أعصابه. أمّا الباقي فكان غارقًا في عتمة

كثيفة. غيّر العسكري الأوّل ثيابه في تلك الأثناء. قال له في قلب الظلام: صرت تتهجّم الآن على بلدك! انكمش إبراهيم على نفسه أكثر فأكثر. تعرّف على الصوت الخبيث، ولم يشعر بأيّة حاجة للنظر إلى وجهه. عاود العسكري الأوّل ملاحظته، فسارع إبراهيم إلى الردّ عليه: إنّك تبعثني على الغثيان! لا أريد حتى النظر إلى وجهك!

وضع العسكري الأوّل يديه على الستارة الحديديّة للزنزانة، وحاول المرونة معه، بعد أن أدرك أنّ إبراهيم مستعدّ لكي يلفظ الروح إن اقتضى الأمر ذلك: كلمة واحدة منك تقولها بخصوص صداقتك مع الضابط، وستتخفّف بعدها من كلّ عبء!

قام إبراهيم بتؤدة، وهو يضغط جانبًا من ساعده الأيسر على حديد الزنزانة، على سبيل العثور على بعض الراحة الجسديّة، صدر منه بعض الأنين، ثم اقترب من الستارة الحديديّة: أجل، الضابط الكبير، كنت أعرفه معرفة جيّدة. كنت صديقه!

تلقّف العسكري الأوّل ردّ إبراهيم، وسأله: من الذي قتله؟

امتلأ صدره مرارة وقرفًا، فبصق على وجهه عبر الستارة الحديديّة، وقال صارخًا: شخص مثلك هو الذي قتله، أتسمعني؟ حقير دنيء مثلك، يسهر على حاويات أسياده من اللصوص! انفجر العسكري الأوّل فجأة بضحكة ساخرة حزينة. حدث ما يشبه التشابك بين العسكري الأوّل والعسكري الثاني وسط العتمة. وتوقّف كلّ شيء عند هذا الحدّ.

عند الفجر، بكى إبراهيم بحرقة. سأل الله الفرج متذكّرًا والدته التي كانت تحسن الدعاء له في كلّ صباح. وما إن طلعت الشمس حتى وجد نفسه خارج السجن. عيناه منتفختان، وساقاه ملتهبتان بتأثير البول، لكن قلبه كان يخفق باعتزاز وسعادة. الشيء الذي لم يعرفه إلّا بعد وقت، هو أنّ العسكري الأوّل وجد نفسه بدوره في السجن لبضعة أيّام! ما الذي حدث؟ الله أعلم!

* * *

في الحيّ، نظر إليه أصحابه وكأنّه قدّيس تلبّي السماء دعوته في أيّة لحظة. كيف أمكنه أن يفلت من قبضة أولئك الزبانية؟ هل هي دعوات المرحومة والدته؟ أم دعوات والده الذي ما فاتته صلاة الفجر أبدًا؟ هل ينبغي التبرّك به من الآن فصاعدًا؟ وهل وهل؟ أمّا في الحديقة فما عاد التفكير يجري في اجتثاث شجرة الدردار التي أحرقتها الصاعقة. الجزمات التي جمعها حميد واختزنها داخل صناديق من الورق المقوّى في مكان من الشاليه ستعرف طريقها إلى مكان آخر. استفسر إبراهيم من بعض الموظّفين عن مصير حميد، لكن ما كان واحد منهم قادرًا على أن يعطيه جوابًا صحيحًا. فهم من الابتسامة التي انتشرت على وجه المدير أنّ غريمه أساء التصرّف، وهو يدفع الآن الثمن نيابة عن مسؤوليه السامين. إذ، بدلاً من أن يقوم بعمله الاستخباراتي، ترك غيرته تتغلّب عليه. رغبته في الاستحواذ على ضاوية وراء هزيمته. ودّ إبراهيم أن لو رآه بعد أن انعكس السحر عليه. قال في نفسه: الغبي! كنت سأغتفر له

كلّ شيء لو أنّه قدّم اعتذاراته!

وفي نهاية الظهيرة، جاءته ضاوية ثائرة غاضبة. تمنّت أن ترى حميدًا وهو يتخبّط في بوله بالذات في الزنزانة التي كان إبراهيم سجينًا فيها. وكانت تلقّت أدقّ الأوصاف عنها وعن معاناة إبراهيم. ثم إنّه رفض مقابلة عمّها الجنرال الذي أراد الاستفسار عن وضعيّته. توجّه والد إبراهيم مع ذلك ليقدّم اعتذاراته للجنرال. لم يرد لابنه أن يبتر العلاقة فجأة مع شخص هو أبعد ما يكون عن العذاب الذي تعرّض له ابنه. غير أنّ إبراهيم ازداد تعنّتًا.

قال في نفسه لا ينبغي التعامل مع هؤلاء الصعاليك الذين ما انفكّوا يعذّبون هذا البلد!

* * *

ينبغي إسقاط جميع هذه الرموز الكاذبة! لا شيء في مكانه الحقيقي. الرجال ليسوا في أماكنهم. الحياة في هذا البلد يجب أن تعاود الانطلاق على قواعد سليمة! ما فتئ إبراهيم يكرّر ذلك في كلّ لحظة من لحظات يومه. في قلب الليل، قام وهو على أشدّ ما يكون من القلق، وأكثر حزمًا وعزمًا على القيام بشيء ضدّ الذين يمسكون بزمام الحكم. قال في نفسه: مبدئيًّا، يجب على كلّ مواطن أن يصفّي جسديًّا واحدًا من أولئك الصعاليك. لست عنيفًا، ولا أؤمن بفعاليّة العنف! لقد حان الوقت لكي يضع لنفسه استراتيجيّة يتعامل بمقتضاها ضدّ الذين يمسكون بزمام السلطة. إنّهم عبارة عن طبقة اجتماعيّة تعيش على بقايا رموز متقادمة. حتى الرموز نفسها يمكن أن تتلاشى وتفقد بريقها ونصاعتها الأولى في أذهان الناس.

إبراهيم يقف ضدّ الأفكار المزعومة التي فرضتها طبقة سياسيّة معيّنة. ضاوية قادرة على أن تفهم مقصده. حرب التحرير ليست إلّا

رمزًا، لكن، هو رمز تقلّص تأثيره بمرور الزمن. ما عاد يحمل في طواياه الرسالة الاجتماعيّة والسياسيّة نفسها. هذا الرمز ما عاد قادرًا على تحريك الجماهير، بل هو قائم الآن لغرض واحد: تمكين بعض الممسكين بزمام السلطة من مواصلة النهب والسلب. صارت الثورة نوعًا من حوت كبير ألقى به الموج على رمال الشاطئ. جميع سكّان الناحية ينهشونه في كلّ صباح، ولا يتركون منه إلّا بقايا هيكل عظمي. ينبغي أن يوضع هذا الهيكل داخل متحف، ولا ينبغي لمسه أبدًا، وإلّا فإنّه سيسقط قطعة قطعة، أو سيتناثر مثل الغبار.

هذه الأفكار بالذات هي التي ما فتئت تحرّك إبراهيم منذ سنته الجامعيّة الأولى. لاحظ أنّ هناك معدّلات عالية يوزّعها أساتذة تافهون على طلبة فاشلين، يحتلّ أولياؤهم مراكز عليا في النظام السياسي. ما كان يسمح لنفسه بأن ينتقد النظام الجامعي على هواه. وكيف يفعل ذلك ووالده عامل بسيط في الميناء لا يكاد يضمن له قوته؟ ضاوية التي هي اليوم على وشك الفراغ من دراستها متمرّدة مثله تمامًا. الفرق بينهما هو أنّه في مقدورها أن تقول بصوت عال ما تفكّر فيه. لا يمكن أن يسيء إليها أحد.

وفي قلب الليل، خرج إبراهيم إلى الشرفة. راح والده يترصّد كلّ حركة تندّ عنه، غير أنّه لم يرد إزعاجه. المهمّ في نظره هو أنّه خرج سالمًا من بين أيدي الأمن العسكري! عندئذ استذكر إبراهيم آيات القرآن الكريم التي تتحدّث عن أبي الأنبياء، إبراهيم عليه

السلام. نبيّ، وأيّ نبيّ، يمقت التماثيل التي يعبدها أهل قريته. ولذلك تناول فأسًا وهدمها عن آخرها، ثم فتّتها، وحوكم بعد ذلك. ونجا من عذاب التحريق بفضل الله. فرك إبراهيم يديه وقال في قلب الليل: ما أنا إلّا مواطن بسيط، فقير، في بلد تعتّمت الآفاق أمامه.

وعند هذه النقطة بالذات، خطر له أن يُقيم الموازنة بين وضعيّته ووضعيّة أبي الأنبياء. رمز قبالة رمز آخر، أو رمز ضدّ رمز آخر. وفجأة، تساءل: ولِمَ لا أسير في الطريق نفسه؟ أبو الأنبياء حطّم الأصنام، وسأجتهد أنا لكي أقوم بالشيء نفسه، حتى وإن كانت بعض تماثيل الحديقة من البرونز. دار عدّة دورات حول نفسه على الشرفة. وكان والده في تلك الأثناء يحضّر القهوة، دون أن يتجرّأ ويسأله عمّا يشغل باله.

قال إبراهيم في نفسه: الفكرة رائعة. لكن، كيف يمكن وضعها موضع التطبيق؟!

* * *

تصايح إبراهيم، والفجر ينبلج فوق المدينة الكبيرة: الضربات المؤلمة توجّه ليلاً! يا له من تكتيك، ويا لها من استراتيجيّة! العاصفة الأخيرة التي تسبّبت في إحراق شجرة الدردار العجوز بدأت تتحوّل الآن إلى حرارة خانقة. تلكم هي الطبيعة، لكنّها ليست طبيعة البشر. من عادة البشر أن يتركوا الوضع على حاله، دون تنظيف ولا ترتيب. إبراهيم يعرف بعض الشيء عن ذلك الآن بعد أن خبّر جلّادي الأمن العسكري.

عليه الآن أن يفكّر في أفضل وسيلة للانتقام، لكن بلطافة ودون أن يضرّ بأحد. كرّر مرّات ومرّات: الرموز هي هي، في كلّ مكان من العالم. هي الدليل على أنّ الممسكين بزمام السلطة، أيًّا ما كانت هذه السلطة، لا يحبّون التغيير. كلّا، لن يصير هو أميرًا للأنبياء. كلّ ما يريده هو توجيه ضربة، أيّة ضربة، لتماثيل الحديقة، للرموز التي انسلخت عن جلدتها الأولى وصار مرادفًا للقهر. إبراهيم يدرك حقّ الإدراك أنّه سيُلحق ضررًا معنويًّا بأولئك

السادة القابعين في الأعالي، ويعلم أيضًا أنّه سينتقم بطريقة ذكيّة لصديقه الضابط القتيل. لن يسمح لضاوية بأن تشاركه العمليّة. يراها مندفعة أكثر من اللازم، ولو فعل لانكشف أمره بسرعة، ولذهبت استراتيجيّته أدراج الرياح. وجّه نظرة إشفاق إلى والده وهو يؤدّي صلاة الفجر. آه، لكم تمنّى أن يخرج معه في جولة للصيد في عرض الخليج!

قال بصوت مهموس، على سبيل إقناع نفسه: الرموز يجب إسقاطها! الإنسانيّة كلّها تلجأ إلى الرموز لفترة قصيرة فقط، وإلّا فإنّها قد تقيّد نفسها بنفسها. لقد حوّلنا أفكارنا الكبيرة في هذا البلد إلى قيود، وها نحن نتحمّل أعباءها رغمًا عنّا.

انطلق إلى عمله والسعادة تغمره. لقد تحرّر فجأة من قيود كثيرة. خطر له وهو داخل الشاليه أن يسأل عمّا آل إليه دفتر يوميّاته. هل يتعيّن عليه أن يقابل المدير؟ ليس من شأن هذا الأخير سوى أن يسمّم الأمور، ويلقي عليه بسحابة من الشكّ أيضًا. مذكّراته كتبها باندفاع وبحبّ في الوقت نفسه. أجل، تسرّع في الكتابة، لكنّه شعر بأنّه تحمّل مسؤوليّته حقًّا وصدقًا. من يدري، قد يجيء يوم ويُعاد إليه دفتر يوميّاته. الأمور تتغيّر بسرعة في هذا البلد. هناك بعض الذين يتعنّتون في البقاء على كراسيّهم، وهناك أيضًا تلك الرموز التي فرضوها بالقوّة. صفّق إبراهيم، ودار حول نفسه في الشاليه مردّدًا: سيتغيّر كلّ شيء في هذا البلد! سيتغيّر كلّ شيء في هذا البلد!

ليس هناك من داع لإقامة متحف للجزمات العسكريّة القديمة في قلب الحديقة! هذه الخرافة قضت على نفسها بنفسها! لن يكون للشرّ مكان فيها. حميد يدفع ثمن الأباريق التي هشّمها، عن قصد أو عن غير قصد. فجأة، أشرقت الفكرة في دماغه: ولِمَ لا يكون هو مرتكب الجريمة؟ الذين يخطّطون لها ويسحبون خيوطها، موجودون في الظلّ، أمّا هو فقد ظنّ أنّه انتصر في معركة ما كان يعرف عنها أنّها خاسرة. الغبي، سيدفع الثمن نيابة عنهم!

الضابط القتيل لن يكون موضوع تحقيق بوليسي، ولن يقوم الأمن العسكري بفتح ملفّه مرّة ثانية بعد اليوم! ناس كثيرون سقطوا ضحايا في هذا البلد! خسارة لا مثيل لها في الأبدان والأرواح! صديقه، الضابط القتيل، لن يحظى بتحقيق بوليسيّ يجري وفقًا للمعايير المعمول بها في العالم المتحضّر. إنّه ضابط ميّت ومدفون، وذلك كلّ ما في الأمر. الموز والسيّارات والمخدّرات والأسلحة، وغيرها من السلع الكماليّة الأخرى، ستظلّ تهبط دائمًا في قلب الميناء بالليل وبالنهار. إبراهيم يفكّر الآن في نظم بعض المقاطع الشعريّة عن أولئك السادة، بل إنّه ينوي أن يضع لها موسيقى شعبيّة يردّدها الناس كلّهم. أجل، ذلك ما ينقص بلدنا. هؤلاء الصعاليك يتمترسون وراء نظام بأكمله لأداء لعبتهم القذرة. إنّهم يفتقرون إلى شجاعة القول والفعل.

قام إبراهيم ببعض الخطوات في الحديقة. نظر صوب الأطفال وهم يقفزون حول حوض الأسماك الحمراء. حقًّا، ليس هناك فرق

بين الأطفال. كان يقوم بالشيء نفسه في الحديقة قبل أن يتوجّه بعد ذلك إلى الفصل الدراسي. ممرّات الحديقة، تعرفه جيّدًا. يحدث له أن يتحاور معها دون كلمات. هنا، غنّى النشيد الوطني. هناك، وجّه صفعة لأحد رفاقه. بالقرب من الشاليه، قبّل فتاة للمرّة الأولى في حياته. تساءل قائلاً: ما هي الطريقة المثلى للنيل من تمثال حمّال الميناء؟ وكيف يمكن تشويه النقوش البارزة عند مدخل الحديقة العامّة؟ تمثال الأموات سبق أن نال منه إزميل نحّات بلا موهبة. ليس هناك ما يمكن إضافته في هذا الشأن. دار دورات عديدة في ممرّات الحديقة، والتساؤلات نفسها تعبر دماغه. شعر بما يشبه حرقة في المعدة فأدرك أنّه شديد القلق. ولم يبرز أيّ حلّ أمامه.

* * *

أبو الأنبياء حطّم الأصنام، فما الذي سيفعله إبراهيم بأصنامه؟ عليه أن ينال من رموزهم، أن يلطّخ النقوش البارزة عند مدخل الحديقة، وأن يوجّه ضربات بالمطرقة لتمثال حمّال الميناء. تذكّر أنّ هناك في الشاليه جبسًا قديمًا لم يستعمله البنّاؤون الذين قاموا ببعض اللمسات داخل مبنى الإدارة. ينبغي انتظار هبوط الليل، أي، بعد إغلاق باب الحديقة. لن يكون حينئذ إلّا حارسان داخل البناية. الممرّات ستكون فارغة، ويمكن أن يعطي لنفسه مطلق الحرِّيّة.

تصنّع مغادرة الحديقة على الساعة الخامسة والنصف بعد العصر، غير أنّه تمكّن من معاودة الدخول إليها متسلّقًا بصعوبة شجرة من الكاوتشو تطلّ مباشرة على الشارع المجاور. لن يقوم أحد بإطلاق النار عليه حتى وإن هو تسلّل إلى الشاليه.

حرّاس مبنى الإدارة غير مسلّحين. ينكمشون في العادة على أنفسهم داخل مبنى الإدارة، ولا يخرجون منه إلّا حوالى الساعة

السابعة صباحًا. انبطح وراء شاليه التنظيف بعد أن ملأ ماعونًا كبيرًا بالجبس.

وقبيل الساعة العاشرة مساء، صبّ كثيرًا من الماء على الجبس دون أن يخلطه. وما أسرع ما انطلق صوب تمثال الحمّال ليقذفه بالعديد من الكرات. ثم واصل حركته مهتاجًا، وكيفما اتّفق. ما كان قادرًا بطبيعة الحال على التطلّع إلى وجه التمثال بسبب العتمة، لكنّه ضحك في قرارة نفسه. النقوش البارزة عند المدخل هي التي بقيت تنتظر شطحاته. صعب عليه الأمر لأنّه وجب عليه أن ينقل جزءًا كبيرًا من الجبس والماء، ويخلط ذلك كلّه خارج الحديقة. مزيج من الفرح والخوف في صدره، لكنّه ساير هواه. عاود الخروج من الحديقة عبر الممرّ نفسه الذي تسلّل منه. الشارع خالٍ لأنّ ساعة إطلاق النار اقتربت. لا بدّ من أن يفرغ من مهمّته أيًّا ما كان الأمر، ودون أن يراه أحد. واصل مسعاه بسعادة غامرة. لم تمرّ عليه إلّا بضع ثوانٍ حتى كان قد لطّخ نصف مساحة النقوش البارزة. تقطّعت أنفاسه وهو يشعر بأنّه تحرّر من ثقل الماضي، من جميع الرموز ومن النظام السياسي العتيد بأكمله. السفن المنقوشة تلقّت ضربة كبيرة. والمباني البحريّة على اللوحة المستطيلة نفسها لم تفلت من كتل الجبس. حرص على ألّا يترك أيّ بصمة. ثم إنّه اتّخذ طريق العودة إلى داره غير آبهٍ باقتراب ساعة إطلاق النار. الشوارع والأزقّة فارغة باردة، وهو في غمرة السرور. وكلّما اقترب من داره، أحسّ بأنّ جسده يخفّ، وأنّ عقله يطير في أجواء ما انفكّت تنداح أمامه.

هل سينام ليلته هذه؟ الفرح الطاغي كفيل بأن يبعثه على الأرق. لم يسبق له أن عرف مثل هذه الحالة الروحيّة. رأى نفسه رفقة صديقه الشابّ ذي العينين الزرقاوين الصافيتين. راح يتجوّل معه في أزقّة المدينة الصغيرة التي لم يستكمل فيها خدمته العسكريّة. تمنّى أن لو بادر كلّ مواطن من هذه المدينة الكبيرة بتوجيه ركلة رعناء لرموز هذا النظام السياسي، ولا شكّ حينئذٍ في أنّ الأمور ستتغيّر حتمًا!

استقبله والده أسفل البناية وهو على أشدّ قلقه. حدّق في بريق عينيه ظنًّا منه أنّ السكر نال منه. اقترب منه ليشمّ رائحة فمه، فقال له إبراهيم ضاحكًا: أنت تعرف أنّني لا أشرب الخمرة أبدًا! ثم إنّ والده سأله: ولِمَ هذه الفرحة الطاغية في عينيك؟

وضع إبراهيم ساعده على كتف والده، وبدأ يصعد سلالم البناية معه. ما كان في مقدوره أن يشرح له ما قام به. قال في نفسه إنّ الزمن سيتكفّل بذلك. ينبغي عليه أن يكون هادئًا الآن، فالريح العاصفة توشك أن تهبّ. عندما بلغ مدخل الشقّة، أرسل ضحكة ساخرة، وقال لوالده: ستقلب الريح جميع القوارب والمراكب! وجّه له والده نظرة مستفسرة: لكنّ مصالح الأنواء لم تقل شيئًا! انطلق إبراهيم في ضحك متواصل، مثل إنسان بدأ يفقد كلّ اتّصال بعالم الواقع. وبعد لحظة، فتح باب المدخل أمام دهشة والده وهو يقول: اطمئنّ، قارب صديقك ليس في خطر! أتمنّى أن يقلع عن فكرة بيعه!

ردّد الوالد بينه وبين نفسه بعض الأدعية، ونظر إليه مرّة ثانية قبل أن يدخل غرفة النوم. أمّا إبراهيم فإنّه فتح باب الشرفة وراح يعبّ النسيم الخفيف الذي يتصاعد من أميراليّة الجزائر. ما أجمل الحياة عندما يتمكّن الإنسان من القيام بما يريده بعد العديد من أشكال الحرمان! غدًا، سيطلع النهار، وسينتظر بسرور غامر ردود أفعال السادة الذين يسيّرون شؤون هذا البلد على هواهم دون أن يعيروا بالاً لعذاب الأغلبيّة الكبيرة!

* * *

النار، ما أجمل النار!

سرت في أزقّة المدينة همهمة غريبة الوقع منذ الصباح الباكر: من نال من التماثيل والرموز؟ أهو فرد واحد، أم هم أصحاب اللحى؟ وجاء الجواب من أعلى، ودون تردّد، بأنّ فتى يُدعى إبراهيم هو الفاعل. لا دليل على ذلك ولا أثر، اللهمّ إلّا ذلك الموجود في الشاليه، أي كمِّيّة الجبس التي تناقصت دفعة واحدة.

اعترض عدد من رجال الشرطة في الزيّ المدني سبيل إبراهيم حين همّ بالدخول إلى الحديقة على سبيل استئناف عمله. لم يقاوم، ولم يعاند، بل رسم على وجهه ابتسامة إنسان أخذ بثأره بعد انتظار طويل. لم ينظر صوب النقوش البارزة. حينها ارتفعت أصوات من هنا وهناك، بينما اتّخذ رجال الشرطة أمكنتهم بالقرب من مدخل الحديقة للوقوف في وجه أيّ حركة مناوئة.

تجرّأ إبراهيم فتمعّن في تمثال الحمّال عن بعد. الكتلة البرونزيّة ازدادت تشوّهًا. بدا أنّ عيني الحمّال المسكين غابتا في

محجريهما بفعل كتلة الجبس العالقة بجبهته وبخدّيه الناتئين. بقع بيضاء مدبّبة علقت بأعلى الرأس، وتقاطر الجبس من أعلى الفكّ في شكل كرات صغيرة، ثم استقرّ على أعلى الصدر. هذه تحفة التحف كلّها!

تمكّن بعض الملتحين من الانزلاق إلى ممرّات الحديقة. يا له من أمر استثنائي في مثل هذا الظرف! كره أن يراهم يتبادلون الابتسامات، على سبيل الانتقام. قال قائل في نفسه: لقد قمت بالعمل نيابة عنهم، يا إبراهيم! لكنّه سارع وردّد بهدوء: بل إنّني قمت بذلك في سبيلي أنا، وفي سبيل أولئك الذين قهرهم هذا النظام السياسي منذ عدّة عقود! غير أنّ الملتحين أشبه ما يكونون بالضباع، وهم ينتهزون جميع الفرص والأوضاع. يتوصّلون إلى قلب ما هو جميل، وما هو دقيق صحيح في هذه الحياة.

حزن في بداية الأمر حين جاء رجال من الشرطة في الزيّ المدني ليلقوا القبض عليه. ما كان في مقدوره أن يفعل شيئًا أكثر ممّا فعله. تمنّى أن يقتل واحدًا منهم، وها قد اكتفى بأن فعل ذلك في أعماق نفسه. قال: يتعيّن على كلّ شخص أن يتحرّر من الضابط الذي يسيطر عليه. هي الطريقة الوحيدة لتغيير الأوضاع في هذا البلد، ومعاودة الانطلاق على أسس سليمة. وقف مدير الحديقة على مبعدة من إبراهيم، ثم ألقى نظرة هادئة عليه، لكنّه غمزه بطرف عينه للتدليل على موافقته إيّاه. وأدرك إبراهيم أنّه بلغ مراده. قال: لو كان حميد حاضرًا لكنت انتشيت أيّما انتشاء!

تعالت بعض الأصوات الناشزة من خارج الحديقة، مطالبة بأن يُحرق مرتكب الجريمة. وارتفع صوت آخر مردّدًا بأنّ زمن الأنبياء ولّى إلى غير رجعة، وأنّ زمن محاكم التفتيش على وشك الانقضاء هو الآخر. وقال صوت ثالث: بل ينبغي أن نلقي في النار أولئك الذين يقتلون دون أن ينالهم العقاب!

اقترب شرطي في الزيّ المدني من إبراهيم وسأله: لِمَ، تراك، ارتكبت هذه الجريمة البشعة؟ لم يردّ عليه إبراهيم على الفور، بل جال ببصره في ممرّات الحديقة، ثم حرّك يمناه في الهواء قائلاً: لكي أحرّرك، يا هذا، ولكي أحرّر غيرك من الناس! أردف الشرطي: أنت مجنون! ولم يجد إبراهيم أفضل من أن يقول له: كلّ شيء يمكن استخدامه في هذا البلد من أجل القضاء على نظام عفن، بما في ذلك الجنون نفسه، يا صاحبي!

في هذه اللحظة، عبرت سيّارة إسعاف ممرّات الحديقة دون أن تطلق صفيرها. وبادر عدد من الممرّضين إلى تقييد إبراهيم بمئزر المجانين. لم يقاوم، بل كشف عن وجه ساخر كأنّما هو في أوّل يوم من خلق العالم.

يدور هذا النصّ الروائيّ حول الوضع الجزائريّ المتأزّم، الذي تصوغه نخبة عسكريّة متسلّطة وجماعات دينيّة متطرّفة، وضياع اجتماعيّ، وأسى على ثورة وطنيّة مجهضة. بنى الروائيّ عمله متوسّلاً أدوات فنّيّة ملائمة: الرمز، السخرية السوداء، الشخصيّات المقابلة، الحوار الداخليّ، ووثائق اجتماعيّة تاريخيّة، وشيئًا من الكتابة المباشرة التي تحتجّ على وضع سلطويّ يستعمل الجزائريّين ولا يحل مشاكلهم.

ISBN: 978-9953-89-179-8

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ – ١١ بيروت